د. محمد سعيد القشاط

يــا فاطمــة الجبــل

قصة واقعية من التاريخ الليبى
تـروى فظائع الطليان

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: يا فاطمة الجبل

تأليف: د. محمد سعيد الفشاط

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢١٢٣٠

الطبعة الأولى 2016



القاهرة: 4 ميدان حليم - خلف بنك فيصل

شارع 26 يوليو - من ميدان الأوبرا

27877574 - 01000004046

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهـــداء

إلى ابنتي أروى التي ساهمت
بمراجعة هذه القصة

محمد

وقعت أحداث هذه القصة سنة 1913 بعد أن غزا الإيطاليون ليبيا. وخاض الليبيون معارك 1911-1912-1913 فى الهانى. وقرقارش. وجنزور. وعين زاره. وسوانى بن يـادم. وبومليانه ومنطروس. والأصابعة. آخر هذه المعارك فى المرحلة الأولى من الجهاد فى مارس 1913.

وكانت قبيلة البدارنة وهى قبيلة فاطمة تقع على قمة الجبل الغربى بين الحرابة والجوش ويقول البدارنة إن أصولهم من قبيلة نفاث التى تقطن الجمهورية التونسية الآن.

والبدارنة تنقسم إلى قريتين صغيرتين متجاورتين على قمة الجبل.

قرية «دقى» التى تنتمى إليها فاطمة صاحبة هذه القصة، وقرية «زعرارة» التى ينتمى إليها خليفة زوجها.

وكان يقع تحت قمة الجبل الذى تعلوه القريتين بئر ماء يرد عليه الجميع. ويسقون حيواناتهم ويعبئون أوعيتهم ويصعدون إلى الجبل.

وكان لكل أسرة أرض يفلحونها فى مواسم هطول الأمطار. وهى ليست مساحات شاسعة وفى شعاب الجبل. يجعلون السدود من التراب لحقن السيول ويزرعون فيها أشجار التين والزيتون وهذه الأشجار يقضون عندها فصل الصيف. ويجففون التين ويختزنونه لمئونة الشتاء.

كانت فاطمة ابنة الطيف العبرود فتاة جميلة يتسابق الشباب لخطبتها والزواج بها. إلا أن والدها منذ صغرها اختارها لابن عمها أحمد إلا أن فاطمة عندما شبت لم تكن راغبة فى ابن عمها أحمد الذى لم يكن شكله يعجبها.

لقد التقت وهى تملأ الماء من البئر بخليفة بن سعد من القرية المجاورة. وراق لها وكان قد ملأ لها قربتها وسقى حمارها ولم يتركها تملأ الماء من البئر.

كان ذلك اللقاء هو الأول وهو الذى غير حياة فاطمة فلقد أعجبت بخليفة خاصة وأنه بعد أن ساقت حمارها صاعدة الجبل وعلى ظهره قربة الماء سمعته يترنم بأبيات من الشعر فيها.

تكرر اللقاء فى البئر وهو لم يكن يومياً. وصار خليفة يتحين الفرص لورود فاطمة فيريق ماء قربته ليذهب لملاقاتها بحجة أنه يملأ الماء.

إلا أن العادات تلك الأيام لم تسمح لخليفة بالحديث مع فاطمة.

ولكن مبروكة زوجة الحداد سالم قامت بالمهمة، فلقد كان زوجها حداداً يشحذ السكاكين والاجلام. وينقش الرحى ويقزر القدور لأهل القريتين لأنه لا يوجد حداداً آخر ينافسه فى مهنته.

وكانت زوجته تنظم الخرز. وتصنع الوسائد الجلدية. وتحنى العرائس وتخطب للشباب وتوصل الرسائل المتبادلة بين المحبين.

التقت مع فاطمة فوق البئر وأبلغتها أن خليفة يريد يتزوجها إن كانت موافقة.

أبدت فاطمة إعجابها بخليفة ولكنها كانت تخشى من عدم موافقة والدها الذى يريدها لابن أخيه.. طمأنتها مبروكة وقالت لها اتركى الموضوع عندى أنا أتكفل به.

وقامت بزيارة منزل الطيف العبرود وتحدثت مع زوجته امدلله. التى أقنعتها بخليفة إلا أنها تخشى غضب الطيف ورفضه.

وتكررت زيارات مبروكة على امدلله التى وافقت إلا أنها لما حكت الموضوع لزوجها رفض بشدة. وتسرب الخبر ووصل إلى أحمد الذى اغتاظ والتقى مع خليفة فى عرس أحد أقربائه.

وكان الشباب يلعبون فى «العراسه» واحتك أحمد بخليفة وأسمعه كلاماً جارحاً وهدده.

وكظم خليفة فى نفسه الغيظ وبيت الأمر وأرسل لوالده يطلب منه خطبة فاطمة.. أخذ سعد زوجته نجمة ومبروكة زوجة الحداد.. وسالم الحداد.. وعبدالنبى ابن عمه واتجهوا إلى منزل الطيف العبرود فى القرية الأخرى. استقبلهم بترحاب وأقسم أن يبقوا لتناول الغذاء الذى حضره على النطيط.. ورحومه أخ الطيف.

وبعد الغذاء فتح سالم الحداد الموضوع الذى أغاظ رحومه لأن فاطمة

هى مسماة على ابنه أحمد ووجم الجميع. واستأذنوا بالخروج والطيف يعتذر لهم لان ابنته مخطوبة وكل شيء بالمكتوب.

وسمع النساء الحديث وخرجن وامد لله تعتذر لهن لأن الأمر بيد الطيف.

***

هاجم الإيطاليون ليبيا فى خريف 1911 وتجمع المواطنون من كل أنحاء الوطن للدفاع عن بلادهم. وشكل البدارنه مجموعاتهم التى تلتحق بالجهاد بالتبادل فى منطقة العزيزية. وأجروا القرعة على سكان القريتين من الرجال.

ووقعت القرعة على الطيف العبرود يقود المجموعة التى تضم عشرين رجلاً.

وخاضوا معارك الجهاد فى الهانى. وعين زاره. وبئر بومليانه. وسوانى بن يادم.

واستشهد ثلاثة من مجاهدى البدارنة وجرح الطيف العبرود وعاد محمولاً على جمله.

وقام على النطيط بعلاجه لمعرفته بالطب الشعبى إلا أن مما زاده ألماً عدم وجود ابنته فاطمة التى تسللت ليلاً رفقة مبروكة زوجة الحداد والتى كانت متفقة مع خليفة. وصلت إلى منزل والد خليفة. وبقيت فيه. وابن عمها يهدد ويتوعد وسعد والد خليفة ينتظر قدوم الطيف.

ولما رجع الطيف جاءه سكان القرية يعودونه بما فيهم سعد الذى رفض الطيف مصافحته وحاول الجماعة تهدئة الموقف. إلا أن الطيف قال لهم لتذهب إلى الجحيم إنها لم تعد ابنتى ولم أعد استقبلها فى بيتى.

وعقد عبدالنبى العقد لها وتزوجها خليفة على غير رضى والدها.. إلا أن فاطمة كانت تلتقى بأمها على البئر وتتبادل معها الأخبار دون علم والدها.

كانت القرية تملك مجموعة من الماعز كل بيت له مجموعة. وكانوا يكلفون راعياً لهذا الماعز يدعى مسعود.. جاء إلى القرية وهو صغير ولا يعرفون من أين أتى. فصاروا يكلفونه بالرعى مقابل أجر زهيد فى نهاية العام وقميص ومداس وجرد تشترك القرية فى شرائه.

وفى كل وجبة يتناول مسعود الطعام عند أسرة من الأسر التى لها معيز معه.. يتعشى ليلاً، وفى الصباح يعطونه خبزة هى غذاءه فى المرعى. ويملأون له «مطرته» بالماء.

ضجت القريتان بخبر هروب فاطمة إلا أن الموضوع تناساه الجميع مع الزمن. وطغت عليه أحداث أخرى، منها أخبار الشهداء ورحيل المجموعات الأخرى البديلة للحرب.

وكان الفقيه ضو هو إمام الصلاة فى القرية التى يسكنها خليفة وزوجته. وهو الذى يجرى القرعة بين الرجال للذهاب إلى الحرب.

كما أن القرية الأخرى زعراره يديرها على النطيط على أنه شيخ القرية. ويحاول إصلاح ذات البين بين المتخاصمين.

وكانت مبروكة التى أعدت كل لوازم فاطمة من الخرز والعقيق وسيور الجلد وحتى البُلغة المنقوشة. كما أعد الحداد القطع الفضية لها الأسورة والحلقات والأخراس.

ودفع خليفة كل ما طلبه الحداد وزوجته. ومع أن سكان قرية زعزاره لم يحضروا العرس مجاراة لخواطر الطيف. إلا أن قرية «دقى» احتفلت بالعرس. واعتبرته انتصاراً لإرادتها ضد زعراره.

كان هذا فى خريف 1912. حيث انسحبت تركيا بموجب معاهدة لوزان بسويسرا من ليبيا. وتركت الليبيين لمصيرهم. وللطليان.

اجتمع قادة الجهاد فى المناطق الغربية فى مدينة العزيزية، وأقسموا على مواصلة الجهاد فى ضريح سيدى رمضان.. إلا أن الطليان هاجموهم ونقل المجاهدون قيادتهم إلى يفرن.

وكانت الدفعة الثالثة لأهالى البدارنة تتهيأ للالتحاق بالجهاد. واجتمعوا بالمسجد، والنساء يزغردن على المجاهدين. وانطلق مسعود الراعى باتجاه الفقى ضو. طالباً منه بإلحاح أن يذهب مع الذاهبين للجهاد.

ضحك بعض الناس. وحاول الفقى ضو أن يثنيه عن الذهاب بحجة

أن الغنم لا أحد يستطيع الاهتمام بها. وبأنه صغير السن.

صاح مسعود في الحضور قائلاً:

والله يا فقي ضو ان أمشي للجهاد. وسأحضر لك جرد طلياني.

ضحك الجميع وقال الفقي ضو: الطليان لا يلبسون الجرود.

قال مسعود وهو لا يزال في لهجة الحزم: ما لا شن يلبسوا.؟

قال له: يلبسوا قفاطين.

قال مسعود: أنجيب لك قفاطين رومي.

وأمام الحاحه وافق الجميع على ذهابه للجهاد ووضع مخلاته على ظهره، وربط سير مداسه وارتكز على عصاته خارج المسجد ينتظر رحيل المجموعة.

كان هذه المرة سعد والد خليفة هو رئيس المجموعة المتوجهة للجهاد.

قام سعد يوصي ابنه على الأسرة وعلى الماعز والحمار بأن لا يتركه خارج الغار حتى لا يأكله الضبع. وأوصاه بأخذ الحذر من أحمد بن رحومه ولا يلتقي معه. أو يفتعل معه المشاكل، كما أوصى زوجته نجمة بأن تهتم بفاطمة ولا تتركها وحدها تجلب الماء أو الحطب.

خرج ركب المجاهدين باتجاه الظاهر وشيعهم السكان إلى أسفل الجبل ودعوا لهم بالنصر.

كانت المعركة القادمة فى الاصابعه، فالطليان احتلوا العزيزية وغريان.

والمجاهدون حشدوا أنفسهم فى الاصابعه ومجموعات العائلات من المناطق الغربية تجمعت حول بئر الحرابيه قرب الحدود التونسية.

ارتحلت المجموعة وبرزت فى القرية قضية من يرعى الماعز؟ واتفقوا أن يقوم كل يوم أحدهم برعى الماعز، وصار خليفة يناوب مع المناوبين على رعى الماعز.. وفى الليل يدخل كل قطيع إلى غار صاحبه، والغيران لها سقيفه.. يبيت بها الماعز والحمار والأسر كل عائلة تجتمع فى غار.. فيه نومها وجلوسها وطبخها وأكلها.

وكان غار خليفة مقابل لغار والده. وبينهما السقيفة.

وفى احدى الليالى وفاطمة تحلب المعزاة فى الظلام تحسست يدا تمتد لها وسط الماعز فصاحت، وأشعلوا النار ووجدوا ابن عمها داخل الماعز يريد أن ينتقم من فاطمة فتصايح الجيران.. وأشبعوه ضرباً وفكروا فى قيده إلى الصباح إلا أن الفقى ضو أمرهم بإطلاق سراحه ليرجع إلى أهله.

لقد خرج أحمد يجر اذيال الهزيمة ولم يرجع لقريته لقد خجل من فعلته، ولم يعرف له أحد إلى أين اتجه. ولقد جاءت أمه تسأل عنه صباح اليوم التالى فأخبروها بالقصة فرجعت دامعة العين إلى قريتها.

ولما لحقت بها مبروكة زوجة الحداد فى اليوم الثالث للحادثة أخبرتها أنه قد يكون ذهب للجوش.

***

خاض المجاهدون معركة الاصابعه فى مارس 1913 وحضرها مجموعة البدارنه الذين شاهدوا الفتى مسعود ينقض كالسهم باتجاه الطليان وهو يصيح.

رانى خال امباركه

وغطاه عجاج الرصاص.. حتى ظنوا انه قتل وبعد قرابة الساعة جاء يحمل ملابس جندى إيطالى وبتدقيته بارا بقسمه الذى أقسمه أمام الفقى ضو فى المسجد.

ووقعت الهزيمة واستشهد الكثير من المجاهدين بما فيهم سعد قائد مجموعة البدارنة كان رحمه الله رجلاً طيباً خلوقاً وشجاعاً.. هاجم العدو.. وحارب بضراوه واستشهد مع ثلاثة من رفاقه.

***

عادت المجموعة تحمل جرد سعد ومداسه وبندقيته وما ان وصلوا حتى ضحت القرية بالزغاريد والبكاء وكان أكثر الباكين نجمة وخليفة الذى فقد والـده.. وثلاثة من أصدقائه.. سلموه الجرد والمداس والبندقية فاحتفظ بالبندقية وتصدق بالجرد والمداس لسالم الحداد

الذى استلم الجرد ولسان حاله يقول مصائب قوم عند قوم فوائد.

واجتمع الناس فى المسجد لاستقبال المجاهدين وترحموا على الشهداء.. ووشوش أحد المجاهدين فى أذن الفقى ضو. الذى ابتسم واستدعى مسعود الذى تقدم مزهوا وهو يقدم ملابس الجندى الإيطالى للفقى ضو.. فقال الفقى لمسعود بارك الله فيك ولكن ماذا قلت لما هاجمت الطليان.

ابتسم مسعود ودنكس رأسه من الحياء.

***

استلم مسعود المعيز ليرعى به كالمعتاد. وفى أول يوم لمرعاه افتقد عنزتين.. صار يبحث عنهما فوجد آثارهما وقد افترسهما الذئب.

ولما أخبر أهل القرية فى الليل.. تذكروا أن الماعز كلفوا به الأولاد لرعيه.. فخاتلهم الذئب وقتل منهم عنزتين.

وهكذا من يغفل عن رعيته يكن هذا جزاءه.

لم تخل القرية من الحوادث.. فلقد رجع عبدالنبى من الجهاد ويحمل معه قنبلة يدوية وجدها فى المعركة وهو لا يعرف ضررها، فجلس مع زوجته التى كانت تعد له الشاى بطريقة مبتكرة، فهم يحرقون الشعير ويجعلونه مكان الشاى، ويضعون التين بدل السكر.

قرر عبدالنبى أن يتحصل على الكوب الذى تحتويه القنبلة.. وصار

يحاول فكها.. ويطرقها بحجرة فانفجرت عليه.. وقتل رحمه الله وزوجته أم صالح.. وابنه الصغير عبدالرازق.. ولم ينج من التفجير إلا ابنه صالح الذى كان خارج الغار وتهدم مقدم الغار.

واجتمعت الناس تحفر عن القتلى.. وجمعت أشلاءهم ودفنتهم وحزنت قرية دقى جميعاً على هذا المصاب الجلل.. الذى لم يحدث فى السابق.

ومنذ أن علمت نجمة بخبر استشهاد زوجها.. أصيبت بصدمة جعلتها طريحة الفراش.

وكانت الجارات يزرنها بما فيهم مبروكة زوجة الحداد.. التى ابتكرت طريقة للعلاج بأن تكويها على بطنها.. وأقنعت ابنها خليفة وفاطمة، فأشعلوا لها النار فى الكانون ووضعت حديدة حتى احمرت.. ووضعتها على بطن المريضة المسكينة وامتلأ الغار بقتار ورائحة اللحم المشوى.

وقالت إنها ستشفى بإذن الله.

إلا أن نجمة ازداد عليها الحال وتعبت وسهرت بجانبها فاطمة طوال الليل على ضوء مصباح من الزيت.

وفى آخر الليل سمعت حشرجة الموت فأيقظت خليفة الذى وجد وجه أمه أبيضاً كالقماش.. وأنفاسها متقطعة فصار يناديها ولكنها لم

تجب، ثم سكتت نهائياً بعد شحوب وجهها.

عانقها خليفة وهو يبكى.. وفاطمة كانت تبكى بحرقة لأن عمتها نجمة كانت لها خير عون تعتبرها مثل أمها.

قالت وهى تشهق إذهب لمبروكة واستدعيها. خرج من الغار يتعثر فى ربق الماعز ورباط الحمار ووصل إلى غار الحداد.. وطرق بابه المصنوع من صنور النخل بحجرة.

خرج الحداد وهو يقول خير إن شاء الله.. مَنْ؟

أنا خليفة يا عمى سالم.. أمى ماتت.

قال الحداد.. رحمها الله وإنا لله وإنا إليه راجعون.. ونادى مبروكة.. مبروكة امشى لغار عمك سعد نجمة توفت.

رجع خليفة ووصلت مبروكة التى أغمضت عيون نجمة الشاخصة.

وطلبت من فاطمة إعداد جردل من الماء وتدفئته وقامت بتغسيلها إلا أن الكفن غير موجود فاقترحت أن يتم تكفينها فى ملحفتها التى تكسيها.

عند الصباح استيقظت القرية على فاجعة خليفة.. وحمل الرجال أمه على أكتافهم وهم يرددون «لا إله إلا الله محمد رسول الله يفنى العبد ويبقى الله».

دفنوها بجوار أمها ووالدها، فلقد كانت تقول أريد أن أدفن بجانب

أمي وأبي.

وكان سعد يتمنى ذلك ولكنه قتل في المعركة ولا أحد يعلم أين هو.

***

رجع خليفة باكياً وتجمعت النسوة في الغار يعزون فاطمة.. آلمه كثيراً أن أهالي قرية زعراره لم يأتوا لتعزيته لا في أمه ولا قبلها في أبيه. إنهم لازالوا يحملون الحقد عليه.

قال الفقي ضو: عليك أن تجعل تأليف على أمك.. فجمع سكان القرية.. وهم ليسوا كثيرين.. وذبح عنزاً.. وقاموا بالتسبيح كما تقضى عادات التأليف وتعشوا وأعطوها فاتحة بأن يغفر الله لها.. ويدخلها فسيح جناته.. وخرجوا إلى بيوتهم وشعر خليفة وفاطمة بالخواء الذي يضم الغار وأنه صار موحشاً يصعب السكن فيه.

لأول مرة ينام هو وزوجته في بيت لا يسمع فيه صوت والدته.. وهي تأمر وتنهى وتذكرهم بمرابط الحيوانات.

استلقى بجانب فاطمة التي هي الأخرى يقتلها الحزن ساهما في السقف.. ثم قال: يا فاطمة الناس ترحل لتونس.. والطليان قادم الينا.. علينا بالرحيل.

غداً نمشي للصيعان أنجيب نياقي وجملي من أبلهم ونرحل.

قالت فاطمة: شاور الفقي ضو وأهل البلاد.

قال غداً أطرح عليهم الموضوع فى الجامع ونمشى نجيب البعاير.

***

أذن الفقى ضو لصلاة الفجر.. ووصل خليفة للمسجد كما وصل عدة أشخاص.. وبعد الصلاة قال خليفة للفقى ضو أدعو الناس للاجتماع لنفكر فى الرحيل، فالناس جميعهم ارتحلوا للغرب والطليان قريب يوصل.

أشرقت الشمس وصاح الفقى ضو فى المسجد بعد أن صعد مئذنته المتواضعة. «الصلاة جامعة»

فوصل الناس للمسجد وبادرهم الفقى باقتراح خليفة.. جميعهم وافقوا واتفقوا أن يذهب كل شخص ليحضر ما عنده من الإبل للرحيل كما اتفقوا أن يذهب الفقى ضو ليعلم قرية زعراره حتى يرحلوا جميعاً.

رجع خليفة إلى الغار ليجد فاطمة تقطع رأس العنز التى ذبحوها البارحة بعد أن أحرقت شعرها على النار «شوشطت».

سألها عن بردعة الحمار أين؟.. فأحضرتها له ووضعتها على الحمار وربطتها وألجمته.. وخليفة يغز القليه التى وضعتها له فاطمة ليفطرها ووضعت له كسرة خبزة فى مخلاته.. لأنه يريد أن يذهب إلى الإبل ليحضر نياقه.

استبشر خيراً ذلك الصباح لما وجد احدى معزاته قد ولدت توأم..

وقد لبأت فاطمة منها شيئاً تركته له.

ولما قدمته له.. وصلت مبروكة وهى تقول صباحكم بالخير يا عيلة..

صباحك بالخير.. تفضلى على ما جيتى..

مدت يدها وأخذت القطعة الأكبر وهى تتمتم.. ذقنا الجديد.. وروسنا من الحديد.. وروس النصارى من القديد.

وقالت يا خليفة هذى حارة دحى جيب لى بيها ربع ليترة زيت من الجوش.

أخذها منها وهو يقول إن شاء الله.

خرج وبيده المخلاة. وقاد الحمار إلى خارج السقيفة وركب بقفزة واحدة ولكزه وسار مع المسرب الضيق الذى ينحدر من الجبل.

مر على البئر فى أسفل الجبل تذكر لقاءاته مع فاطمة وتذكر ذلك اليوم الحاسم الذى أخبرته فيه مبروكة أن فاطمة ستهرب معه.

وتذكر الموعد الذى كان فى المساء بجانب البئر وأن مبروكة هى التى ساعدته على ذلك، تنهد وهو يقول: الفلوس تدير كل شىء.

تذكر كيف منحها 5 قروش سهلت له كل شىء.. أجتاز البئر ووصل إلى السهل متجهاً إلى الجوش قفزت أرنباً من شجيرة صغيرة كانت ترقد فيها.. جفل الحمار.. سقط خليفة.. وسقطت المخلاة وتكسرت

بيضات مبروكة.

قام خليفة مسرعاً ومنزعجاً ومسك الحمار من خوف أن يهرب.. وتحسس البيضات. وتحسر على ضياعها. وفكر كيف يغرم لها ثمن الزيت.. ركب من جديد وتحسس مرفقه الذى جرحته حجرة ولعن الأرنب المشئومة.

ولاءم الطريق العريض وسار باتجاه الجوش.. فمن البدارنه يلوح قصر الجوش وبعض البنيان.. ولكن النخيل وغابته لا ترى إلا عندما يأتون للجوش من الشمال فهى فى منحدر وكذلك عيون الماء.. أهل البدارنه يعتبرون الجوش سوقهم لشراء الخضروات واحتياجاتهم من حوانيته القليلة.

كما أنهم يجلبون حاجياتهم للجوش.. التين والجرود وبعض الحيوانات.

ولكل عائلة من البدارنه عائلة من الجوش يسمونهم أصحابهم ويترددون على بيوتهم ويتغذون عندهم ويستريحون.

نزل خليفة من على حماره الذى ربطه فى حبل مخصص للحمير.. ودخل إلى منزل صاحبه برطش.. وجاءت زوجته ريم تسلم وتسأل عن فاطمة.

أحضرت ريم الغذاء وأحضرت عالة الشاى وشرعت فى إعداد

الشاى.. أحرقت الشعير «البرهم» ووضعته فى البراد على أساس أنه شاى.. ووضعت التمر بدل السكر.

وسأل خليفة صاحبه هل الجواشه يريدون الرحيل للغرب؟

قال برطش هناك بعض العائلات تريد الهجرة والبقية يريدون البقاء فى الجوش.

قال خليفة نحن أهالى «دقى» نريد الرحيل.. أما زعراره لا زلنا نتحدث معهم فى الرحيل وأنا الآن قادم لإحضار جملى ونياقى لنرحل وإبل عمك أمين وين يمكن نجدها؟

قال برطش إن إبل أمين فى الكاتره وتشرب على عين البطحاء.

قال خليفة سأذهب إلى الكاتره لإحضار النياق.. قاد حماره من وسط الحوش. وركب عليه وسار مع الطريق التى تشق الغابة.. ودع الحمار الجوش بنهيق متقطع.. انداح خليفة بحماره متوجهاً إلى «حسى الفريّد» ومنه وصل إلى «الفّالج» وتوجه إلى الكاتره فتراءت له الإبل.. ووصلها وكان الراعى يجمع إبله قبل المغرب.

وصل خليفة للإبل وكان الراعي يجمعها. ووصلا إلي المراح وأعطى للراعى خبزة أعدتها له فاطمة وقام الراعى يحلب بعض النوق للعشاء.

كان الراعى من قبيلة الربائع وهم خبراء فى الإبل. قام يعقل الجمل ويضع عليه رسنا. أما النياق يحاول الراعى أن يضع القيد فى أذرعها

ويسمونه «يذرعها».

أما القعود فيربطون حبلاً فى رجله الأمامية.. ويربطون طرفه الآخر فى مسلانه.. ويقولون عنه «بومسيلين» .

سمر الراعى مع خليفة يسأله عن الأحداث إلى ساعة متأخرة من الليل.

عند الصباح قاد الجمل برسنه والنياق تتابعوا فى جرة الجمل.

وصل خليفة بقافلته إلى عين البطحاء حيث سقى الجمل والنياق.

وسار باتجاه «دقى» التى وصلها عند العشية ولما لم يجد فاطمة سأل عنها فأخبروه أن والدها توفى.

ركب خليفة حماره بعد أن عقل الجمل والنياق وتوجه نحو قرية زعراره ليحضر مأتم صهره.. وهى المرة الأولى التى يذهب فيها إلى زعراره منذ أن أخذ فاطمة.

***

وصل خليفة ووجد صهره قد تم دفنه فقدم التعازى لزوجته التى هى نسيبته.

ووجد فاطمة تبكى ولاحظ أن وجهها أصفر.. طلب من نسيبته جدياً يستطيع أن يذبحه للناس ويجعلوا عشاء الميت.

حضر بعض رجال القبيلة وحضر الشيخ على النطيط وتعشوا معاً

والموت حلت مشاكل الحقد.. إلا أن والد أحمد لم يحضر لأنه لازال يحقد على خليفة.. ولم يحضر عند بيت أخيه بل جلس وحيداً فى مأتم أخيه.

قام خليفة إلى حماره ليركبه متوجهاً إلى قريته «دقى» وبقيت فاطمة مع أمها وهو يحدث نفسه ان فاطمة هذا شهرها قد تلد.

بات وحيداً فى الغار بعد أن ربط المعزة فى السقيفه وربط الحمار وأعطاه حزمة القزاح لأكله.

نام وحيداً يتأمل الأيام كيف تسير وكيف أن فاطمة كانت متعبة تقوم بكل هذه الأعمال وحدها.

تذكر والدته رحمها الله وكيف كانت توصيه بفاطمة وتذكر والد فاطمة عمه الطيف العبرود.. وكيف كان يتهدده ويتوعده ولكن الله له قدرة أخرى.

قطع تأمله نهيق الحمار القوى الذى تردد صداه فى الغار.

قام من مكانه ليرى ماذا حدث.

لقد وجد أن حمارة الفقى ضو قطعت مربطها وجاءت إلى الحمار.

ساقها بعيداً وهو يكلم نفسه قائلاً إن الناس تهمل حيواناتها ولو أن الحمارة توجهت إلى الوادى لقتلها الضبع.

أوصلها إلى غار الفقى ضو وناداه.

آخر الليل الناس نيام فخرج الفقى مسرعاً ليجد حمارته يسوقها خليفة.

قال له بارك الله فيك إنها حمارة ملعونة تصور أنها تقطع بأسنانها الرباط لأكثر من مرة.. رجع خليفة إلى غاره ليتم نومه وهو يسمع الفقي ضو يضرب الحمارة ويشتمها.

تمدد على الحصير.. كان الظلام حالكاً.. أحس بشيء يدب على رجله قمص رجليه بسرعة وأشعل عود ثقاب.. إنه فأر يتحسس ما يأكل.. ما إن أشعل الضوء حتى هرب الفأر إلى السقف.. قال خليفة يجب أن أحضر دواء للفئران.. استمر خليفة نائماً.

عند الفجر سمع الفقى ضو يردد الآذان .. قام وتوضأ وتوجه إلى المسجد.

كان عدد المصلين قليلاً.. رجع خليفة إلى الغار لم يجد ما يفطر به إلا حبات من التين اليابس.. لاكها فى فمه وشرب الماء.

وقام ليضع البردعة على الحمار ويتوجه إلى زعراره إلى منزل اصهاره.

ما إن وصل حتى استقبلته مبروكة زوجة الحداد تطلب البشارة. لقد جاءتك شوشانه ونقصد طفله لقد أتعبتنا زوجتك وسهرت طوال الليل معها.

الطفلة سليمة.. وجميلة.. أدخل يده فى جيبه.. وأظهر خمسة قروش وأعطاها إياها.

ودخل الغار كان يغبق برائحة الحنتيته والوشقة والفاسوخ.

كانت النسوة تحيط بفاطمة وهى ملقاة على الحصير وبجانبها طفلتها الصغيرة.

احترم النساء فلم يدخل.

من بعيد قال الحمد لله على سلامتك يا فاطمة ومبروك الصغيرة.

ردت بصوت ضعيف الله يسلمك.

وانزوى فى السقيفه حيث جلس على الركابه المعدة للجلوس.. جاءته مبروكة تحمل حصيراً ومخدة.. وبعد قليل أحضرت له قصعة عصيدة أعدت بمناسبة المولودة الجديدة..

قالت مبروكة قالوا لك آش بتسميها؟

قال بعد أن تحرك فى مجلسه وتنحنح: اسمها على أمى نجمة.

زغردت مبروكة ودخلت للنساء لتبلغهم بالاسم فارتفعت الزغاريد.

قام خليفة بعد أن تناول العصيدة ولبس مداسه وتوجه إلى غار الشيخ على النطيط.. وجده يجلس وحيداً وزوجته تعد له ما يسمى بالشاى وهو الشعير المحروق مع التين.. تنحنح خليفة عند فم الغار.

سمعه النطيط وصاح به تفضل خش.

دخل خليفة وسلم على الشيخ وعلى زوجته عائشة.

قالت عائشة مبروك الشوشينيه يا خليفة.

قال النطيط نسيت مبروك إن شاء الله.

قال خليفة يا عمى على نحن فى «دقى» اتفقنا على الرحيل إلى تونس الطليان واصل إلى المنطقة قريب يوصلنا وانتم شن رأيكم؟

قال الشيخ على: نحن اتفقنا على الرحيل للعجيلات لقضاء الخريف هناك ونتمير لأولادنا التمر.

قال خليفة: إذاً الطريق فرقت.

قال الشيخ على: نتلاقوا على خير.

قام خليفة، وقالت عائشة هاك طاسة الشاى.

قال خليفة: والله ما غرضى.

وخرج خليفة مر على غار اصهاره حيث ترقد فاطمة وطلب من مبروكة أن تسألها هل تستطيع أن ترحل غداً.

ذهبت إليها ورجعت وقالت له أستطيع الرحيل معكم.

ركب حماره وتوجه إلى دقى.. حيث وجد أهالى القرية يجهزون أنفسهم للرحيل وقد قربوا الإبل وبعضهم يخيط الحوايا والبعض يجهز غرائر الأثاث.. ومنهم من ينشر خميته ليطويها وتكون جاهزة للرحيل.

قام خليفة بتفقد متاع الرحيل وتحسس الهودج الذى أعده لحمل

فاطمة وبدأ فى كسوته حتى يحفظها عن الشمس وعن الأعين الفضولية.

بات طوال الليل يتحرك بين الإبل الباركة وبين الاثاث الذى كدسه بجانب النياق والهودج المنصوب بجانب الجمل.

عند الفجر وبعد صلاة الفجر شرع الجميع فى تحميل الإبل وصرت تسمع ضجيج رغاء الإبل فى القرية.

وطلب خليفة من سالم الحداد أن يساعده فى تحميل النياق وتركيب الهودج.

ما إن أشرقت الشمس حتى كان الهودج منصوباً على الجمل والخيمة وقد وضعت على ظهر القعود والاثاث تم توزيعه فى غرائره على النياق وتم ربط كل شىء بإحكام.

وتوكل الجميع على الله.. وساروا متوجهين إلى زعراره ليودعوا الناس فى هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر ولا يعلم عاقبتها إلا الله.

أناخ خليفة الجمل أمام غار صهره حيث ترقد فاطمة والتى خرجت بتثاقل ومبروكة تحمل فى حضنها الطفلة.

وضع خليفة رجله على ركبة الجمل بعد ان مسك رسنه وتقدمت فاطمة وانحنى خليفة لها حيث وضعت رجلها على كتفه وصعدت إلى الهودج حيث وجدته ممهد فاستقرت به واعطتها مبروكة الطفلة.. إلا أن مبروكة دخلت إلى الغار مسرعة وأحضرت صرة من التراب أعطتها

إلى فاطمة لتجلس عليها فى الهودج لأسباب تعرفها النساء.

أطلق خليفة عقال الجمل الذى قام متناقلاً وخليفة يقبض على رسنة.

جاءت أمدلله أم فاطمة تودعه وهى تقول له ردبالك من فاطمة.

قال لها لا تخافى إلا إذا جاها شيء من الله وجاء سكان القرية يودعون المرحول.

وقال الشيخ على النطيط يجمعنا الله.. على الخير ردوا بالكم من الطريق.

قيل لمسعود ان يسوق الغنم أسفل الجبل حيث يلتقى بالمرحول.. لم تبق فى دقى إلا أربع عائلات فالفقيه ضو قرر أن لا يترك المسجد فهو يدرس الأولاد والحداد أيضاً يرى نفسه أن صاحب مهنة ليست خطراً على أحد.

***

وصل المرحول إلى البئر حيث وجد مسعود ينتظر بغنمه.

وقف خليفة ينعته الطريق.

أشار إليه هل ترى الجوش..؟ اتركه على يمينك، وهناك مجموعة من النخيل غربى الجوش هى عين البطحاء.. تسقى الغنم عليها وتنزل إلى السهل تحتها ونحن سنلحق بك.

هل ترى تلك القباب البيضاء انها قبة سيدى امحمد بن سالم وروضة الشناينية اتركها على يدك اليمين إنها مقبرة الجوش الكبير هل عرفت؟

قال مسعود عرفت كون هانى.. وانطلق بسوق القطيع بعد أن ابتعد قليلاً صار يغنى بيت قديم.. طريق السلامة يا بلاد تهنى وتو تعمرى كان خرابك منى.

انتظمت القافلة فى سيرها.. ولما وصل خليفة إلى المكان الذى قفزت منه الأرنب أول أمس واسقطته على الحمار قال فى هذه العرفجة كانت الأرنب ترقد وقبل أن يتم كلامه قفزت الأرنب من مكمنها.

وقالت العرب «الأرنب إذا وكرت ماتت» وانطلقت الكلاب تطاردها والأولاد والنساء والرجال حتى قيل «أرنب الرحيل».

وأخيراً تمكن عبدالسلام بن عطية أن يقبض عليها بعد أن رماها بعصاه وذبحها وعلقها على جمله وقالت الامثال «الطير فيد من زوى» كانت فاطمة تتابع المشهد من هودجها وخليفة لم ينزل من على ظهر حماره.. وهو يمسك برسن الجمل مخافة من أن يجفل ويسقط فاطمة.

تتمتم فاطمة بالدعاء وهى تشاهد مقابر الأولياء فى الجوش الكبير.. ان تلك المقبرة الكبيرة والقباب لركب حجيج المغاربة ماتوا هنا وهم فى طريقهم إلى الحج وتلك القبة هى لشيخ الركب.

والقبة الأخرى لسيدى امحمد بن سالم جد قبيلة الشياب فى

الرحيبات وهم أصولهم من بنى شيبه الذين يملكون مفتاح الكعبة.

وشاهدت فاطمة وهى صغيرة زيارة الشباب إلى جدهم كانوا يتسابقون على الوصول إليه ويقيمون مهرجاناً وسهرة كبيرة عند ضريحه.

لاحظت فاطمة شجرة السدر التى تذكرها بأول لقاء لها مع خليفة.. كان بمناسبة يوم عاشوراء وتجمع الفتيات لقطع أحد أعراف السدر.. وتقضى الطقوس ان كل شخص يضع قطعة قماش على العرف، ويغرسونه فى التراب خارج القرية ويشعلون النار ويطوفون بها وهن يتغنين.. اندبن يا شايبات على نبينا قالوا مات.

وهى من آثار الفاطمين الشيعة.

تذكرت فاطمة أنهن جئن ليقطعين العرف. فتواجد خليفة مع مجموعة من الشباب فقام وقطع لهن العرف وسلمه إلى فاطمة.

إنها الأيام تمر. كانت معى رجعه رحمها الله لقد لسعتها افعى وهى فى الغار تتحسس موقعها فى الظلام فنهشتها الافعى.

كنت بجانبها قام عمى سعد بذبح كلب وبقر بطنه ووضع يدها فى جوفه قبل أن السم يخرج ويتسرب إلى جوف الحيوان.

إلا أن القدر لم يمهلها وماتت وهى تمسك بيدى وتقول فاطمة اننى لم أعد أر شيئاً لقد صعد السم على عينيها.

وكانت معى خديجة التى لم توفق فى زواجها وتم طلاقها.

وكانت معى أم السعد وهى فتاة مرحة تدخل السرور على قلب من يجالسها لم يوفقها الحظ فى الزواج توفيت أمها وبقيت ترعى اخوتها.

قطع خليفة حبل أفكار فاطمة عندما التفت إليها وهو يقول إن شاء الله ماك تعبانة.

أجابته: لا أنا بخير.

قال خليفة: وضعت لك فى الهودج صرة بها التمر قيل إنه جيد للمرأة النفساء.

قالت: وجدتها.. قال لها: والقربة هى على يمينك.

***

استمرت الرحلة.. لاحظت فاطمة أن رقبة خليفة قصيرة جداً وكأن رأسه يغوص فى صدره كأنها لم تلاحظه من قبل.

ولاحظت أنه لا يريد الاقتراب من بقية المرحول فيبتعد بها كلما حاول أى بعير الاقتراب منها وكأنه يغار من عبدالسلام عطية الذى كان يتغزل فى فاطمة أيام الشباب قبل أن يتزوجها خليفة.

لازال خليفة يضمر غيرته ضد عبدالسلام.

***

تسارعت المجموعة إلى قعود خليفة لإصلاح ميل الخيمة التى يحملها القعود.. وأصلحوها بصعوبة وقد ضج بالرغاء.

كانت الأرض مليئة بالسواقى والأودية.. ولا توجد طريق واضح.. وبالتالى يجب أن يتم تفقد الحمول كل لحظة لأنها تميل أو يسقط بعضها عند اجتياز البعير الساقية أو الوادى.

وخليفة لا هم له إلا فاطمة وجمل فاطمة يمسكه بشغف.. ويختار به الطرق السهلة.

وشاهد جواشى يرعى قطيعاً من الماعز مال إليه وسلم وسأله إلى أين أنتم راحلون؟

قال خليفة: نحن متجهين إلى تونس.

قال الجواشى حتى الفقى عظيم.. وأخوه أحمد بن حسن وأخوهم على بن سعيد.. ذهبوا للغرب وارتحل الكثير من الصيعان إلى تونس.

لكن ردوا بالكم من سباييس النوائل فلقد كلفت إيطاليا مجموعة من النوائل وانزلتهم سباييس على خيول.. مهمتهم قطع الطريق على الناس والقبض عليهم ومصادرة أموالهم.. فى المدة الماضية قبضوا على مرحول للصيعان لهمائله فى «أبرق الضبعة» واخذوا كل ما عندهم حتى ملابسهم.. ودعه خليفة وهو يتمتم الله يحفظ يستر الله.

لم تسمع فاطمة كل الحديث ولكنها سمعت بعضه.. منه أن هناك سباييس يقطعون الطريق على المراحيل.

***

وصل مسعود بغنمه إلى العين البطحاء وسقى الغنم وبقى ينتظر المرحول الذى يلوح من بعيد.

وصل المرحول وكرعت الابل فى الماء تشرب.

وقال خليفة لمسعود: هل رأيت ذلك الحجاف المقابل انها الكاترة. سر باتجاهها. ونحن سنلحق بك. ساق غنمه. منحدرة مع ذلك الوادى وشربت ابل المرحول. وحميره. وعبأوا القرب فالماء سر الحياة.

وانطلقت القافلة من جديد مع الوادى.. كانت الأرض خضراء. والأعشاب مزهرة. وأشجار الرتم مزهرة. يفوح نورها فيملأ ارجاء المكان بعد العصر بقليل وصل المرحول إلى الكاترة. حيث انزلوا اثقالهم ونصبوا جزءا من الخيام ليستظل بها من شمس الغد وبرد الليل.

وانتشرت الحيوانات ترعى بنهم فى ذلك الربيع الجميل. وتجمهرت العائلات على مواقد النار يطهون طعامهم ويعدون الشاى ويتسامرون.

اجتمع الرجال يتدبرون فى الأمر وبعد مرور هدأة من الليل ارجع مسعود الغنم إلى جانب اثقال المرحول المكدسة فى غير نظام وبركت الابل شابعة من نعم الله. ونام الجميع.

عند الفجر قام الجميع للصلاة وشرعت النسوة فى حلب الماعز وكان حليبه موفوراً هذا اليوم بسبب جود المرتع.

وما إن أشرقت الشمس حتى ارتوى الجميع من الحليب وأخرج

خليفة من النار خبزة الملة التى برع فى إعدادها.

ناول فاطمة كسرة خبز وكوباً من الحليب. بعد ساعة أو أكثر شعر الجميع بالدوار وصار بعضهم يتقيأ. لابد أن هناك مشكلة.

مر بالمرحول صويعى يبحث عن ضوال.

تحامل خليفة على نفسه وذهب إليه. وسلم والبدو يتناقلون الأخبار هكذا فى لقاءاتهم العابرة. سأل الرجل عن نياق ضاعت منه.

أجابه خليفة هل هى 2 شوايل حمر.

قال نعم.

قال مررنا بالأمس عليها فى رأس الوادى.

قال الرجل الله يبشرك بالخير.

وأنتم إلى أين؟

قال خليفة نحن متوجهين إلى تونس لنلحق بالمجاهدين فى الحرابية.

قال الرجل ان الماجهدين ارتحلوا وأنا مررت بالأمس مساءً على مكان مخيماتهم لقد هاجروا.

قال خليفة سنتبعهم.

وسأل خليفة الرجل الصويعى اصابتنا غريبة هذا اليوم فلقد كنا نريد مواصلة الرحيل.. ولكن الجميع أصيبوا بالدوار لا أعرف من ماذا.

ضحك الصويعى وهو يقول هل شربتهم الحليب؟

قال خليفة نعم!

قال الصويعي إن المعيز عندما يأكل الرتم حليبه يسبب الدوخة.

استريحوا اليوم.. وستزول الدوخة ولكن لا تشربوا الحليب مرة أخرى.

ودع خليفة الصويعى.. ورجع حيث فاطمة تتقيأ.. فقال لها عرفت السبب إنه من الحليب.. فلا تخافى.

وكان مسعود قد انحدر إلى الوادى يرتع بغنمه.. وكذلك ابل المرحول أما بقية الناس فلقد نامت داخل الظليلات التى صنعتها.

وقامت فاطمة وناولت خليفة ربطة فى خرقة زرقاء.. قالت له هذه سرة نجمة اربطها فى رقبة شاة تصبح لها.

أخذها وانحدر باتجاه الغنم واختار عنزاً غراء ربطها فى رقبتها وعاد ليقول لفاطمة إن العنز الغراء أصبحت من اليوم عنزاً إلى نجمة.

وكليلة البارحة تجمهرت العائلات تسمر حول النار وصنع خليفة كعادته «خبزة ملة» جيدة منح منها جلفا لمسعود وجلفا لفاطمة وتناول جلفة.

تعالى الصراخ فى مجموعة عبدالسلام عطية ابنته امباركه تبكى.. سأل خليفة خير إن شاء الله.. آش بيها امباركة.. قال عبدالسلام لسعتها عقرب.

جاء خليفة إليهم وأمرهم بربط ذراعها من أعلى وتشليط مكان اللدغ بالموس.

فعلوا ذلك ولكنها مستمرة فى البكاء.. بحثوا عن العقرب فوجدوها مختبئة فى طيات الغطاء أعوذ بالله.. إنها سوداء ذات لون سيىء قتلوها.. وحرقوها ووضعوها على مكان اللسع يقولون انه يشفى.

عند آخر الليل سكتت امباركة قيل انها رقدت.

الحيوانات ربضت بجانب الاثاث المبعثر حمارة عبدالسلام داهمت غرارة الاثاث التى بها الدقيق وصارت تنهشه بعد أن مزقت الغرارة.

استيقظ عبدالسلام الذى أسرع إليها وطردها واشبعها ضرباً.

لم تفكر فى العودة.. ولكنها لم تبتعد بعيداً وبدأت تغازل فى حمار خليفة.. الذى صاح منهقاً فى آخر الليل يعلن عن وجوده.. الأمر الذى جعل خليفة يستيقظ من نومه.. ويطرد الحمارة من جانبه.

انبثق الفجر واشعل خليفة النار وسرت عدوى النيران بين كل التجمعات.

صاح على مسعود وايقظه وطلب منه أن يسوق القطيع باتجاه الغرب نحو «الحرابيه».

وقال له نحن فى أثرك.. قام مسعود متثاقلاً ولبس جرده ودرع

مخلاته فى رقبته.. وعبأ مطرة الماء بالماء وبدأ يهش القطيع.

فاقت المجموعات تشد الرحال.. وانطلق رغاء الابل وتعاون الرجال فى حمل الغرائر الثقيلة.. ولما وصلوا إلى الغرارة التى مزقتها الحمارة صار عبدالسلام يدعو عليها بان يرزقها الله بضبع يأكلها انها حمارة سيئة.

ما إن أشرقت الشمس حتى صارت الابل تقف الواحدة بعد الأخرى باحمالها.. وانتصب هودج فاطمة كالقصبة وسط المدينة أو البيرح.

وركب من لابد له أن يركب الصغار والنساء، وتربعت فاطمة فى هودجها بعد أن غيرت صرة التراب ليلة البارحة.

وانتظم الرحيل.

عند منتصف النهار وصلت القافلة إلى الحرابية لا وجود لأحد الجميع غادر إلى تونس.

مسعود بغنمه يحوم حول البئر.. أمره خليفة بأن يستمر فى السير غرباً.. سار مسعود بغنمه أمام المرحول قليلاً ثم عاد يجرى إلى المرحول وهو يقول.. السبابيس السبابيس وصلوا.. قال له خليفة أرجع إلى غنمك.

إلا أن ثلاثين من فرسان السبابيس طوقوا الغنم كما طوقوا المرحول وأمروا الرجال بالتجمع وان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وانطلق

أحدهم يحمل حبالاً قيد بها الرجال بأيديهم إلى الخلف.

وأمروا المرحول بالتوجه إلى العسه.

وأمروا مسعود المقيد بيديه إلى الخلف أن يسوق الغنم شمالاً.

لم يعد فى الأمور مزح.. لقد بدأ السوط يركع فى ظهور الرجال.. لم يحترموا صغيراً ولا كبيراً..

رأت فاطمة خليفة مرتين يسقط على ركبتيه وهم يجلدونه.

أما خديجة والدة عبدالسلام فلقد قالت لهم نحن مسلمين وانتم مسلمين حرام عليكم.. فنالت جلدة بالسوط اسكتتها.

الإنسان عندما يسقط يتلقى الأرض بيديه وعندما تكون يداه مقيدتان للخلف يتلقى الأرض بفمه ووجهه هذا هو حال المجموعة.

غربت الشمس والجميع يتعثر فى طريق ليست طريق.. مملوءة بأشجار الحمض والرتم والباقل والسبط.

عثر جمل فاطمة برسنه مرتين.. وأخيراً قام أحد فرسان السباييس بربط الرسن فى رقبة الجمل بحيث لم يعد يتدلى.

وهو يربط الرسن حاول أن ينظر داخل الهودج ويكتشف ما بداخله.. غطت فاطمة وجهها.

ضحك النائلى وهو يقول «الرب فى عقابو».. مرت القافلة الأسيرة براعى ابل.

ناداه أحد أفراد السبابيس وجلده بالسوط وهو يقول له اذهب واحلب وهات الحليب.

ذهب الراعى مسرعاً وشرع فى حلب نياقه حتى ملأ شكوته وقدمها لهم.

شربوا منها جميعاً وهم يقولون «نبيضوا المخطر».

استمرت رحلة العذاب هذه إلى المغرب حيث وصل المرحول إلى العسه.. وفى وهدة من الأرض غربى القصر انزلوا أحمال الابل واستاقوها وأصبحت ملكهم.

كما أن غنم مسعود صارت لهم وقاموا بذبح ستة شياه لعشائهم.

وكدسوا الرجال فى مكان واحد وكذلك النساء فى مكان واحد وممنوع الاختلاط وممنوع الكلام وبين المجموعتين حراسات بحيث تقضى المجموعات حاجاتهم فى مكانها الموجودة فيه.

***

جاء الحارس إلى فاطمة يسأل عنها.. أين فاطمة.. زوجها خليفة.. قالت أنا.. قال زوجك يريدك..

تقدمت فاطمة.. وقال لها خليفة اعطينى النفه.. أدخلت يدها فى جيبه.. وأخرجت علبة النفة.. واخذت منها زنبعا اقتربت منه ووضعته فى فمه.. فقال لها:

يا فاطمة الجبل..

ارجعت العلبة إلى مكانها ورجعت إلى حيث النسوه..

سألتها أم عبدالسلام.. شن قال لك؟

قالت طلب نفه..

بعد قليل.. ضمت ابنتها وطلبت من الحارس أن تذهب لقضاء الحاجة..

وهمزت البنات عائشة وبرنيه قائلة لهما..

هيا ونسوني..

كان الظلام حالكاً والنجوم كأنها أقرب من المعتاد، انطلقت فاطمة يتبعها البنات دون هواده، لم تستطع ان تلتفت ولم تستطع أن تنادى فان الحراس سيسمعونها.

ان أصوات حوافر جيادهم فى مسمعها.. ان السكون يضخم الأصوات ان الارض مليئة بالشجيرات والاحجار.

كانت فاطمة حافية فنعالها بقى فى الهودج.. لم تعد تسمع حركة البنات وراءها.

وخشيت ان تنتظر أو تنادى ان السبابيس قريبين.

كانت تتعثر وتسطدم أرجلها بالأحجار التى تدمى أصابعها.

تضغط على البنت بأن لا تبكى حتى يسمعها السبابيس استمرت تجرى وتهرول وترعل وتسير فى اتجاه تظن انه اتجاه الجبل.

طار سرب قطا من بين أرجلها فانزعجت.. ونفخت حية بقربها فقفزت وجرت.

انه الحفاظ على الحياة.

عوى ذئب وجاوبته ذئـاب.. خشيت بل خافت أن تكون هى المقصود بعواء الذئاب وانهم يتبعونها.

استمرت فى عدوها.. كان صوت قلبها كالطبل فى مسمعها.. توجهت أغلب النجوم باتجاه الغرب.. ظهرت نجمة ساطعة من الشرق انها نجمة الفجر.

لا تدرى كم قطعت من مسافة وكم سارت فى هذا الاتجاه ولـم يكن الناس وقتها يحسبون الوقت بالساعات.. ارتفع عمود الفجر إلا أن الناس يقولون لا يفرق بين الذئب والكلب.

تعبت من السير.

وأحست ان ابنتها أثقل من ذى قبل. فكرت انهم لو طاردوها السبابيس سترمى الطفلة وتهرب.

إلا أنهم يملكون خيول فلا يمنعها الهرب.

هكذا فكرت.. سبحان الله هل ترى عدم رضى الوالدين هو الذى سبب لى هذه المأساة.

هكذا كانت تقول فاطمة فى نفسها سمعت صوتاً أو كأنها سمعت

صوتاً يقول: يا فاطمة الجبل.

كأنه صوت خليفة.

ولكن أين هو خليفة المقيد عند السبابيس تعوذت من الشيطان.

فكرت ماذا لو سقطت بأيدى السبابيس من جديد سيعذبونها.

تعوذت من الشيطان.

انسحبت أفعى من أمامها تاركة لها المجال للسير. رأتها فى بقية الظلام العالقة بأهذاب الفجر.

سارت.. وسارت.. وسارت.. لم ترضع البنت.. ولم تبك لأنها عندما حاولت البكاء ضغطت عليها واسكتتها ربما ماتت أو انها لم تمت لازالت تتنفس.

برز أمام فاطمة مبنى صغير انه بئر به جابيه يسقى الناس عليها حيواناتهم.

تعبت من السير أرادت أن تستريح تحت ذلك المبنى الصغير وهو مبنى على فوهة البئر لمنع الناس من السقوط فيه والحيوانات ولمنع التراب من أن يهيل فيه.

جلست تحت الحائط منهكة أخذت ترضع ابنتها التى تحركت ولازالت عائشة.

كان الريح الغربى بارداً عند الفجر.. كانت فاطمة ترتعد من البرد.. خاصة وأنها منذ الصباح لم تذق طعاماً لقد نسيت الخبزة التى أعدها

خليفة فى المخلاة لو احضرتها معها لاستفادة منها.

نسيت الماء أيضاً.. الله نسيت كل شىء.. وتكاد أن تنسى نفسها كانت الطفلة لا تجد حليباً تصدر أصواتاً هى بين البكاء والمناغاة تقدم من البئر شيئاً كبيراً يتحرك ولما بكت البنت جفل الجمل.

صاح صاحبه.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتى انس والا جنس؟

أجابت أنا أنس.. امرأة ضالة هاربة من الطليان.

كان الرجل مهرباً يهرب المواد الغذائية من بن قردان بتونس إلى أهله فى الجميل ورقدالين.

ارجع الجمل واقترب من البئر.. وهو يقول للمرأة.. شن غريبتك؟

قالت أنا من مرحول البدارنه الذى قبض عليه السبابيس اليوم.. وكردونهم فى العسه.. قال الرجل متأثراً.

الله يأخذ الحق كل مرة ويشدوا حد يعدموه ويأخذوا رزقه.. انا نتهرب منهم من زمن.

دحرج الدلو فى البئر وأخرجه الماء وسكبه فى الجابيه.. حيث شرع الجمل فى الشراب.. كان صوت الجمل وهو يشرب متقطعاً لما ارتوى الجمل. اناخه واخرج كيساً من السويق وصحنا وصنع زميته.

أكل منها واعطى الباقى لفاطمة المنكمشة تحت البئر من الجهة الأخرى.. الله.. إنها ألذ أكلة تأكلها.. الإنسان يألف بالجوع.

قال الرجل توا اتروحي امعاي.. وبعدين دبارها في السما يدبر، ويدير الله طريق.. ربطت ابنتها في غطائها ووضعتها على ظهرها وتبعت الرجل الذى ساق جمله باتجاه الشمال والشمس لم تشرق بعد وهو يتلفت من الخوف وهى منه أشد خوفاً.

كانت الأفكار تتجاذبها وهى تسير وراءه ماذا لو كان الرجل يشتغل مع السبابيس ويقدمنى لهم.

ماذا لو افترسنى فى الطريق ماذا أفعل.. ماذا؟.. وماذا؟.. وماذا؟

وأحياناً تفكر فى خليفة ماذا حدث له.. هل قتلوهم.. ماذا فعلوا بالغنم.. وعنز نجمة التى نحلها لها والدها بالأمس.. ماذا فعلوا للنساء هل قتلوهن أم اتخذوهن سبايا وقدموهن للطليان.

لا يرجعها من أفكارها إلا عندما تعثر فى جذمور من الخشب مدفون فى الأرض.. أو حفرة من حفر الأرض فتعود إلى وعيها.

وعند منتصف النهار وفى منخفض من الأرض تحيط به أشجار السبط الكثيف باتجاه منطقة رقدالين برزت خيمة سوداء وحيدة هى خيمة الرجل.

وخرج ثلاثة صبية يستقبلونه وسيدة شمطاء لوحت الشمس بشرتها وطيرت قصتها إلى السماء.. والأطفال فى اسمال باليه.. أناخ الجمل.. وشرعت تنزل معه شكاير الدقيق.. وسألت من هذه التى معك؟

قال: إنها إمرأة وجدتها تائهة هاربة من الطليان الذين قبضوا على أهلها..

قالت: وكيف هى لم يقبضوا عليها؟

قال: هى هربت.

قالت: ولماذا لم يجدها غيرك؟

قال: المكتوب.

قالت: قل إنك متزوجها وتريد تغطيتها بهذه القصة.

قال: والله ما نعرفها.. إلا لما وجدتها فى بئر الركاريك.

قالت: تخاطب فاطمة زودى خشيي.

دخلت فاطمة وصارت المرأة تعاملها بجفاء وتسألها أسئلة محرجة.

كيف انتى امحنيه وامكحله وهاربة من الطليان.. قالت هذا سابق عما حصل.

وضعت لها عند المغرب قصعة دشيشه هو العشاء وهو الغذاء.

وانتقلت فاطمة إلى جانب الخيمة الآخر لتنام فهى مرهقة وتسمع الرجل يقسم لزوجته بأنها ليست زوجته وبانه لا يعرفها.

ونامت ولم تسمع بقية الحوار...

***

عند الفجر.. قام الرجل يصلى الفجر ويشعل النار والباين انه اتفق مع زوجته ان ترحل فاطمة عنهم ويوصلها إلى السوق ويتركها.

قالت المرأة لفاطمة.. نوظى امشى معاه يوصلك لأهلك فى السوق كان لقيتى حد..

احنا ماناش ملجأ..

جهز الرجل جمله.. وضع عليه شكاير الدقيق لبيعها فى السوق.. وسألها هل تعرفى أحد هنا.

قالت إن ابن عمى عسكرى مع الطليان فى زواره اسمه عبدالرحمن..

قال لها: باللى انوصلك ليه.. ربطت ابنتها على ظهرها.. وتبعته وهو يسوق جمله.. قال معتذراً عما فعلته زوجته.. النسا ناقصات عقل ودين لا تاخذى على كلامها.. لم ترد فاطمة.

نصف يوم كامل من السير.. حيث وصل زوارة وسأل أحد أصدقائه عن هذا العسكرى فأشاروا عليه إلى منزل يؤجره ويسكن فيه.. تقدمت فاطمة من المنزل.. وطرقته ففتحت لها زوجته مسعودة.. فسلمت عليها بحرارة واستقبلتها فى البيت.. وجهزت لها الغذاء وبعد الظهر رجع عبدالرحمن من العمل ليجد فاطمة فى البيت فتجهم وجهه وسألها: كيف جئتى إلى هنا؟

أجابت وروت له القصة كاملة.

قال: لا أستطيع استقبالك لو يسمع بى الطليان يشنقونى.. قومى واظهرى.

قالت له: وين نمشى.

قال: وين عينك امشى امشى.

قالت له: العجيلات بعيدة من هنا.؟

قال: مش بعيدة وفيها البدارنه فى الخريف.. شفتى البحر امشى مع الشط لن توصلى العجيلات.

***

خرجت فاطمة بدون توديع ووصلت إلى شاطىء البحر وصارت تسير بمحاذاته والماء المالح يبل جراح أصابعها فيزيدها ألماً.. إنها صارت تخشى كل شىء.. قُطاع الطرق.. والسراق.. والطليان.. والسباييس والذئاب.

إذ ما إن ابتعدت قليلاً حتى لاحظت أن ذئباً يتبعها فأغاثها الله بعود رماه البحر مسكته بيدها كلما اقترب منها تلوح ذلك العود فيبتعد طوال الليل وهى بين مد البحر وجزره.. عند الفجر وجدت أربعة أشخاص يعالجون مركباً للصيد يريدون دفعه للبحر.

سألتهم عن العجيلات.

قال لها أحدهم هذا المسرب امشى معه إلى أن تجدى العجيلات.

قال لها الثانى وانتى واش جابك اهنا.؟

قالت: المكتوب.

لكزه صاحبه.. آش علينا فيها.

مسكت ذلك المسرب حتى شروق الشمس اوصلها إلى سوق العجيلات.

وجدت فندقاً يربط المتسوقون فيه حميرهم وهناك شخص أجبر يتلقى أجرة على كل حمار.

سألته هل تعرف أحد من البدارنة ايجى للسوق؟

قال الرجل اعرف على النطيط يجى للسوق واليوم ربط حماره فى الداخل ومتى جاء ابلغك جلست مستندة جذع نخله تدور مع ظلها ولما انها ساهرة نعست.

إلا أن أجير الفندق لم يتركها تنام كل مرة يأتى إليها بموضوع.

أحد المواضيع انه فك اشتباكاً للحمير سببه حمار المتكوبس قطع رباطه وهاجم الحمير

المتكوبس يعطيه الشعير والناس مش لاقية للأكل.. وثرثرة أخرى لا لزوم بها.. وذهب لحميره فنامت حتى لحقتها الشمس وحلمت ان خليفة يضعون حبل المشنقة فى رقبته وان والدته نجمة اخذته معها.

استيقظت مذعورة ليقول لها أجير الفندق الشيخ على النطيط ها

هو يطلق حماره ويخرج رأته فتقدمت منه وعانقته وبكت وبكى الشيخ على وهو يقول فاطمة واش جابك؟

قالت له توا انخبرك

سارت تتبعه وقد ركب حماره حتى وصل إلى الكوخ الذى شيدوه بين النخل وخرجت عائشة لتلاقى فاطمة فعانقتها بحرارة وبكتا معاً بكاءً مراً وأدخلتها للكوخ حيث دخل على النطيط وهو يقول:

فاطمة شن صار؟

قصت عليه القصة..

قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير سمعنا بالكارثة وما كنا نظنها وقعت لمرحولكم.. الحمد لله يا بنتى وصلتى الأمان.. قالت وين أمى؟

نظر على إلى عيون عائشة وسكت.. عمى على وين أمى؟

أمك يا بنتى توفت رحمها الله..

كيف أنا تركتها صحيحة؟

كانت تركب الناقة ولما وصلنا النخل جفلت الناقة من النخل وسقطت أمك وانكسرت رقبتها وماتت عليها رحمة الله.

بكت فاطمة كثيراً وساندتها عائشة.. إلا أن على النطيط كان ينهرها عن البكاء ويلقى بالنصائح والأجر والثواب للذين يصبرون.

وجاءت الجارات من العجيلات فساهمن بالبكاء والمشاركة فى المصاب الجلل.

إن المصائب لا تأتى فرادى لم يبق لفاطمة من أسرتها أحد الزوج والأب والأم والأقـارب.. الله ما أعظم قدرتك.. حتى الحيوانات والاثاث والملابس.. حتى البلغه وعصابتها التى بقيت بالهودج.

***

استمرت مجاملات الجيران لعدة أيام ثم انصرفوا لمشاغلهم اليومية.. أغلب النساء صرن يفصين التمر بطريقة يخرجون النوى ويجففون التمر ويخزنونه.

كانت عائشة هى الأخرى تحضر يوم هز النخل وتجمع ثمرها وتضعه فى كومة داخل الكوخ وتبيت الليل ساهرة تمسك بموسها تشق التمرة إلى نصفين وتخرج النواة لتضعها بعيداً وبعد ذلك يستخدمونها فى علف البهائم.

بدأت فاطمة تساعد عائشة واتقنت الصنعة وعرفت الحرفة وبرزت شطارتها.. بعد حوالى عشرة أيام.. اقترحت عائشة على فاطمة أن تغسل شعرها وتدهنه وتقوم بظفرها وتحنيها لإن على النطيط قال لها ان الحزن يجب ان لا يتجاوز الثلاثة أيام.

وافقت فاطمة على الاقتراح وغسلت شعرها كان طويلاً لدرجة

ملفتة تعجب فيه الجيران لم يروا قبله شعر بهذا الطول وبهذا الجمال رجعت لوجهها نظارته وزادها الظفر جمالاً والحناء بهجة.

لقد ظهرت فاطمة بجمالها الطبيعى الذى أخفته المأساة طيلة الأسابيع الماضية.

كانت جارة عائشة المسماة فريحة كثيرة التردد على كوخها وكانت معجبة بجمال فاطمة واقترحت عليها أن تتزوج أخيها الذى يملك سانيه من النخيل و3 بقرات وجمل إلا أن فاطمة اعتذرت بأنها لاتزال فى العدة.. وهى لا تعرف مصير زوجها.

إلا أن فريحة لم تيأس وكان أخوها كل يوم يمر من أمام كوخ على النطيط والدخان ينبعث من سيجارته أغلب سكان المنطقة يتعاطون السجاير.

***

كان السوق أسبوعياً يعقد يوم فى الأسبوع حيث يحضره الناس من مختلف المناطق من يحمل التمر ومن يحمل الشعير ومن يبيع البيض والدجاج ومن يسوق قطيع من الغنم ومن يبيع الابل وحتى الحمير لها سماسرة يجربونها لمن يشترى.. ويحضر كثير من الناس تبيع الخبز أو الفول أو الحمص وهناك سوق للعطارة وآخر للزيت.. ولكل صنف مكانة وتجارة ومن أراد أن يشترى أو يبيع عليه أن يذهب

للسوق المعتاد.. وكثيراً ما تقع الخصومات وأحياناً المعارك بالعصى وتنتهى بسرعة وفى أحد الأسواق رجع على النطيط حزيناً كئيباً فلقد شنق الإيطاليون اليوم عدة رجال فى السوق وجمعوا الناس لحضور المشانق.

انهم مشائخ المنطقة ووجهائها.. وأخذوا مجموعة منهم أسرى للجزر النائية بإيطاليا.. لقد تأثر الشيخ النطيط كثيراً وقال لعائشة يجب علينا أن نرحل من هذا البلد وان نعود إلى قريتنا نموت هناك بين أهلنا وذوينا.

وافقت عائشة وطلبت من الشيخ على السؤال عن الطريق إلى الجبل هل هو آمن؟ فلقد قيل ان قطاع الطرق يملأون الطرقات ويسلبون الناس حاجياتهم وأرزاقهم وكثيراً ما يقتلونهم.

جلس الشيخ النطيط فى ظل الكوخ وقد أعدت له عائشة حصيراً ووسادة.. لقد كان متأثراً كثيراً من منظر المشائخ وهم يتأرجحون فى الحبال فى ساحة السوق.

أحضرت له عائشة كاساً من الشاى.. قال لها تصورى فى السوق الماضى شربت الشاى مع الشيخ اللافى وقال لى.. يجب أن تبقى معنا ولا يمسك أحد واليوم رأيته يتأرجح فى الحبل.. كأنه أحد أولادى.. أرغموا الناس على الحضور وأن يرفعوا أيديهم شعار تحية لإيطاليا وأن يهللوا.. كان منظراً محزناً ولابد لك أن تحضره فلقد حاصر السبابيس

الناس ولم يتركوا أحداً يخرج من الساحة.

علينا أن نرجع إلى الجبل لنموت هناك.. لقد تأكد لىّ اليوم أن الجماعة فى المرحول قتلوهم جميعاً..

جاء الأستاذ بوعجيلة جار الشيخ على والذى يسكن فى سانيته وجلس بجانب الشيخ على وهو يتنهد من الموقف الذى حدث فى السوق.. الناس لا تثق فى بعضها البعض.. فلقد بث الإيطاليون جواسيسهم يسبرون آراء الناس ويخبرون عن كل من يشتم منه أنه ضد إيطاليا.

قال بوعجيلة: شفت يا شيخ مذبحة اليوم؟

لم يعلق الشيخ على.

زاد بوعجيلة قائلاً: دولة ظالمة.

قال على النطيط: سامحنى أنا ما صليتش العصر!.

وقام للصلاة وأطال فيها وفى التسابيح إلى أن نهض بوعجيلة وذهب.

عندما عاد الشيخ على إلى حصيرته وجاءته عائشة تسأله عن الرجل قال لها..

إيجبد منى فى الكلام.

قالت عائشة: رد بالك الأسبوع الفائت رفع الإيطاليون جار محبوبه لأنه قال كلمة احذا جاره راجل محظيه.

قال الشيخ على: هذا الفم لا يسمعوا منه إلا كلمة لا إله إلا الله جهزى روحك للرحيل.. عكل لبلاد على أهلها.

قالت عائشة: هل الحمار يرفع دبشنا؟

قال لها: الله غالب الفقر عله بعنا الناقة بالتمر وبقى البهيم.

قال الشيخ على يخاطب فاطمة الجالسة فى وسط الكوخ: يا فاطمة انتى بنتى فلا تشغلى نفسك اللى بيك بينا.

قالت فاطمة: كتّر الله خيرك انت عمى وانت الوحيد من بقى من أهلى وصرت أنت اهلى.

تنهد ويقول: أنا أهلك لا تنشغلى غدوه نرحلوا بإذن الله للجبل.

***

تجمعت ذلك المساء نساء الجيران فى كوخ عائشة يسلمون عليها ويودعونها وكانت فريحة لم تيأس من فاطمة ان تبقى معهم وتزوجها لأخيها.. إلا أن فاطمة ردت بأدب.. بان ظروفها لا تسمح لها بالزواج.. وزوجها لاتزال تنتظره.

وأحضرت فريحة أربع بيضات ودستهما فى يد فاطمة وهى تقول لها سامحينى هذا ما عندى.

شكرتها فاطمة وحاولت إرجاع الهدية ولكن الهدية لا ترد.. كانت تفكر فاطمة أن تطلب من الشيخ على أن يشترى لها ملحفة وغطاية

وبلغة فلإنها لا تملك إلا محلفة واحدة تلبسها وتغسلها بالطرف.

إلا أنها خجلت فإن ظروفه صعبة عندما سمعته البارحة يشتكى لزوجته عائشة.. حكت عائشة لفاطمة ان ظروفهم صعبة وان ظروف كل الناس صعبة.

وقالت لها تصورى ان جارنا عبدالكريم كان شيخاً لقبيلته فاتعبه الإيطاليون وصادروا املاكه وهو اليوم يشوى الذرة ويبيعها فى السوق وان ابنته تبيع الفول فى السوق للمارة.

فرغ الشيخ على من خياطة بردعة الحمار وحشوها بالليف.. وأصبحت جاهزة.. ووزع التمر على شكارتين متساويتين.. وجرب القرب فهى لا ترشح بالماء.. ووضع صريمة الحمار فوق البردعة.. ولم يهنأ حتى رأى ان كل شيء على ما يرام.. وجهزت عائشة عشاء خفيفاً وجهزت خبزتين لغذائهم نهار الغد.

ونظمت فى المخلاة جرة المعجونة.. والطماطم وقنينة الزيت وقنينة الملح والشاى والسكر.. ولم تنس حتى الحبل الذى سترتبط به الحمار والقيد والحبل الذى ستسحب به الماء والدلو.. كل هذا جهزته إلى جانب كيس التمر.. أما فاطمة فليس لها ما تجهز فليس لها شيء باستثناء ملابس قماط ابنتها التى غسلتها وهى هى نفسها.. ولم تغيرها لانها لا توجد عندها غيرها.. وملحفتها التى غسلتها بالنصف لأنها لا تملك ملابس أخرى. وضمت شعرها فى لفافة زادتها جمالاً حيث ظهر

شعر قصتها على جبينها.. وانسدل شعرها فى جدائل مظفورة.. وكان فى رقبتها سلسلة من العقيق المختلف الألوان وفى يديها حديدتين صنعهما من الفضة لها سالم الحداد بمناسبة زواجها.. أحضرهما لها خليفة.. وكم كانت تتمنى أنها تلبس نعالاً.. ولكن هذه إرادة الله.. وربطت ابنتها على ظهرها، أما عائشة فقد لبست ملحفتها الجديدة.. وغطاء الرأس.. وعصابة على رأسها.. وفى رقبتها زراقة صغيرة من الفضة.. وفى أذنيها اقراط من الفضة.. وتلبس بلغة مغربية فى رجليها اشتراها لها على النطيط من السوق حيث تباع البضائع التونسية المهربة.

أما على النطيط فيلبس قميصاً واسعاً وجرداً وكبوس تونسى.. ويتدرع سلفة يضع فيها موس الحلاقة وموس الذبح ومقص ومنقاش لاقتلاع الأشواك من الرجل وابرة وخيط واشفى وسير ويلبس بلغة تونسية.

وكانت الناس ذلك الزمن لا تعتبر السروال من ضرورات اللباس وكذلك الحاجة.. ويضع على ظهره مخلاة بها مطرة ماء ورغيف خبز وصرة تمر.

***

انطلقت القافلة المتمثلة فى حمار وثلاثة أشخاص لم يودعها أحد.. فالناس لازالوا نياماً باستثناء كلب نبحهم عندما مروا قريباً من كوخ أهله.. وانتظموا فى الطريق المتجهة إلى سهل الجفارة الحمار هو الأول ثم على النطيط ثم زوجته عائشة وأخيراً فاطمة تتبهم بخجل.

بعد شروق الشمس بقليل خرجوا من منطقة النخيل وتوغلوا فى الجفارة.. حيث تمتد غابة من الرتم والسبط وكثبان الرمال بعد أكثر من عشر كيلو مترات قطعوا فى قرابة الساعتين اتسعت الأرض وانفسحت وقلة أشجارها وصار نباتها أشجاراً صغيرة من الباقل والعرفج لا ترى أحد حتى الرعاة غير موجودين.. الأرض خالية بسبب الخوف.. هناك على يسار الطريق بعيداً يلوح مرتفع يسمى «الذراع».. تمر على يمينه الطريق ينتهى بقنة جبليه تسمى «قنة نفيص» على اسم أحد الأولياء الصالحين قد يصلوها بين الظهر والعصر انها مكمن الخوف.. هناك خبر يقول إن عصابة من قطاع الطرق تتمركز فى تلك «القنة» تسلب المارة وتقتلهم..

كان على النطيط يتمتم بآيات قرآنية كلما اقترب من الموقع.. أما فاطمة فلاهم لها إلا اسكات ابنتها التى لا يكفيها لبن أمها..

وفجأة قالت عائشة رجاله قدامنا.. قال على النطيط: يا ربى استر.

صار يقترب منهم كانوا ثلاثة مسلحين.. لحاهم كثه.. وسحنتهم قد لوحتها الشمس مغبرى الوجوه.. يلبسون اسمال باليه ممزقة.. حفاة.. شعورهم ملبدة.

اقترب منهم الراحلون.. صاح أحدهم.. اترك الحمار يا حمار.. واسلب جردك.. امتثل على النطيط للأمر دون نقاش.. فالبنادق مصوبة نحوه..

وقفت عائشة ووقفت فاطمة مسمرتين فى الطريق.. تقدم أحدهم وساق الحمار.. وأخذ الجرد.. قال على النطيط مسترحماً ومستعطفاً يرحم ولديكم.. معى عائلة تحتاج للأكل والماء اتركوا لى الحمار والماء ونقتسم التمر.. لم يرد أحد..

ذهب الرجل يسوق الحمار ويتبعه على النطيط من بعيد ووقف الرجال الثلاثة يتدارسون مع بعضهم كان صوتهم يرتفع أحياناً وأحياناً يخفت.. كان أحدهم يحاورهم ويطلب منهم رد الحمار لصاحبه.. وسمع على ضمن ما سمع قول ذلك الرجل لهم.. انه عمى هذا..

وأخيراً تغلب الخير.. أخذوا التمر وتركوا له قليلاً منه وأرجعوا له الحمار وقربة الماء.. قال على النطيط للرجل وهو يسوق له حماره وقد طمع فى الخير.. كملوا جميلكم واعطونى جردى الدنيا برد والليل جاى..

أخذ صاحب المعروف جرده وقذفه إليه فسقط على مؤخرة الحمار الذى لم يبخل عليه بسوء فعله.

أسرع على النطيط إلى جرده فنفضه ولبسه وابتعد الرجال الثلاثة المسلحين يحملون كيس التمر.. ورجع على إلى عائشة وفاطمة المتسمرتين فى الطريق.

قال هناك أحدهم صارعهم كثيراً وارجع منهم الحمار لازالت الدنيا فيها خير.

كانت فاطمة ترى وتتابع المشهد من وراء لحافها.. كان أحد الرجال كأنها تعرفه عيونه سبق لها وكأنها رأتهم إلا أن سحنته متغيره عنها.

قالت ذلك لعائشة.. التى قالت لعلى النطيط ذلك.. فأجابها.. يا بنتى يخلق من الشبه أربعين.. إلا أن أحدهم عمل معى معروفاً..

سار الركب.. وهم يتلفتون مخافة أن يندم الرجال ويلحقون بهم ليسلبونهم.. استمروا فى السير.. وقال على يخاطب عائشة وفاطمة أن هذا الحمار مبارك.. تصورى أنها المرة الأولى التى يخرج أحداً من أيدى هؤلاء قطاع الطريق سالماً.. والتفت إلى عائشة قائلاً: تتذكرى عندما ولدته أمه كان ولد عمران مريضاً «بالعوايه» وقالوا إن حليب الحمير يشفى من هذا المرض فقمنا وحلبنا الحمارة له.. لقد امتلأ البراد من حليبها وشربه الطفل وشفى من السعال.

وحتى عندما راح منا ولم نجده.. وظننت ان الضبع أكله.. وذهبت للبحث عنه فى الصباح ووجدته فى شعبة عقون شبعان من النجم.

ابتعد الركب.. وصاروا ينظرون للأمام مخافة أن يباغتهم أحدهم من جديد.. وصارت الشمس تغرب.. أحمر الأفق وظهرت النجوم وصار الجميع يتعثر من الظلمة.. اقترحت عائشة أن يبيتوا فى دفء شجرة سدر اعترضتهم لأن فاطمة صارت مرهقة وهى تحمل الطفلة ولكن الحياء منعها من أن تذكر ذلك.

رضخ على النطيط للاقتراح وأوقف الحمار.. إش.. إش..

وانزل قربة الماء وبقية التمر والبردعة وربط الحمار فى حجرة كبيرة.. وجعل من البردعة ساتراً بينه وبين الريح.. قال على لا نشعل النار مخافة أن يرانا أحدهم.. واقتربوا من السدرة التى جعلوها ساتراً بينهم وبين الريح الغربى البارد.

قال على الجو صار يبرد.. وهكذا هى الفصول لا فصل يتحشم من فصل.. قالت فاطمة عندما جاءنا الرجال ندهت سيدى امحمد بن سالم.. ووعدته بوعده متى تحصلت على جدى سأهديه له.. قال على النطيط.. تستور سيدى امحمد بن سالم.. اليوم بين برهانة.

قال لفاطمة: ابتعدى عن السدرة فإن الأفاعى تسكنها.. جلست فاطمة ترضع ابنتها التى لم تكف البكاء لأن الحليب غير كافى.. كررت فاطمة ملاحظتها فى أن أحد الرجال كأنها رأته قبل هذا اليوم..

علق على النطيط على قولها بقوله: شنو كنتى قاطعة الطريق معهم..

أخذت عائشة من الكيس كمشة من التمر وناولتها إلى على.. وأخرجت كمشة أخرى وأعطتها لفاطمة.. كانت فاطمة تخجل أن تأكل أمام عمها على إلا أنه شجعها بقوله: كلى انتى مثل بنتى..

التهموا التمرات بسرعة.. وشربت فاطمة جرعة من الماء من المطرة التى كانت تحملها عائشة..

اتخذ على من البردعة وسادة له إلا أن فاطمة توسدت حجرة وكذلك فعلت عائشة.. شم أحد الفئران رائحة التمر فجرى فوق على النطيط متوجهاً للمخلاة.. قفز على مرتين وطرده وضربه بالعصا.. إلا أنها لم تصبه وأصابت الأرض فاستيقظت عائشة تسأل..

قال على: فار قلقنى..

نفر الحمار من مربطه.. لابد أنه شاهد فى الظلام ذئباً يقترب من المجموعة أو انه شم رائحة الضبع..

وقف على وطاف بالحمار.. وطأطأ رأسه ليرى شيئاً.. ولكنه لم ير شيئاً فعاد إلى مكانه.

شاهد نجمة الفجر قد لاحت.. أيقظ عائشة التى أيقظت فاطمة التى لم تنم لأن الطفلة كانت جوعانة فلم تتركها تنام.

شد على البردعة على ظهر الحمار وربط القربة وعادلها بالتراب الذى ملأ به الكيس الذى كان مملوءاً بالتمر.. وافرغ القليل منه فى المخلاة بعد أن كمش كمشة وناولها لعائشة وأخرى لفاطمة.. ووضع كمشة فى خبنته ليأكلها على مهل..

سار الركب الصغير مع الطريق.. وانبلج الفجر.. وأنار الصباح.. ولاح الجبل كخيط أزرق فى الأفق يتوسطه جبل البدارنه الناتىء..

وتنهدت فاطمة وهى ترى جبل «البدارنه» حيث قريتها وأهلها الذين

لم يبق منهم أحد وانطبق عليها قول الشاعر قيس بن الملوح:

واجـهـشـت لـلـتـوبـاد لمـا رأيـتـه

وكـــبر لـــلـــرحمـــن لمـــا رآنـــي

وقال على النطيط هاذاك جبلنا قريب نوصلوا الحمدلله اللى نجانا من قطاع الطرق..

الله يا دنيا.. هالطريق مشيتها أنا والطيف العبرود الله يرحمه.. رافعين الشعير فى قافلة بعناه فى سوق صرمان.. وشريت كسوة عائشة منين تزوجتها.. إيه يا دنيا.. درنا عرس دندانى..

التفت إلى عائشة وهو يقول: تتفكرى يا عائشة؟

قالت: راح الزمان.. ربى يعوض بالخير..

شارك الحمار فى النقاش حيث اطلق نهيقاً متقطعاً كانه يشم رائحة الوطن..

قال على النطيط مستمراً فى حديثه: وقتها الفجره رخيصة.. خذيت من اليهودى صوار.. واخراس.. وحلقات.. وزراقه.. وتمايم اقبب.. كلها بميات فرنك..

قالت عائشة: الزراقة عطيتها لأمك..

قال علي: الله يرحمها..

تقافزت شياه غزال أمام الركب.. قال على النطيط.. معلقاً:

نهار مبارك.. الغزال شبحه مبارك.. إيه يا دنيا تتفكرى يا عيشة عتود الغزال اللى شديته بالمنداف عامها؟

لم تعلق عيشة ولكنها قالت.. كان الغزال ياسر..

وكلما ساروا وارتفع النهار صار الجبل يقترب قريباً قريباً.. عند العصر تجاوزوا الجوش على يمينهم.. وواصلوا السير وعند المغرب صعد على النطيط بحماره ورفاقه الجبل إلى قرية «زعراره».. لم يبق بالقرية إلا أربع عائلات خرجوا لاستقبال على النطيط وزوجته وفاطمة وهشوا بهم وساعدوهم على تنظيف الغار وادخال البردعة والقربة وجهزوا لهم العشاء بالموجود.

وفرحوا كثيراً بفاطمة وأخبروها عن المأساة وانهم لم يعلموا أن أحداً سلم من المذبحة وبكوا معها.. واشعلوا النار كما أشعلوا مصباح زيت.. وقامت سيدة كبيرة وقد جلبت زلفه بها كمية من الزيت وصارت تلحسها للطفلة التى تتضور جوعاً.

واستقلت فاطمة لوحدها فى غار تلك الليلة لتترك الراحة لعلى النطيط وزوجته التى ضايقتهم لأكثر من شهر فى كوخهم الصغير فى العجيلات.

نامت فاطمة وحلمت أحلاماً كثيرة.. رأت خليفة وهو يمد لها يداه وبينهما واد سحيق.. رأت أمها والناقة تجرى بها.. رأت حمارها يركبه

شيخ كبير.. ومن الغريب أنها رأت مسعود يجرى نحوها.. استيقظت واستعاذت من الشيطان وسمعت عائشة تشعل النار.. قامت من فراشها وجاءت باتجاه عائشة:

صباح الخير..

صباح الخير

تناولت الابريق وغسلت وجهها وجلست قبالة عائشة على الكانون.

كانت عائشة تعد الشاى لعلى النطيط ووضعت فى صحن شىء من الزميته.

أخذت فاطمة عبود زميته واتبعته بجرعة ماء وسمعت ابنتها تبكى فقامت إليها.. فى هذا الاثناء دخل على النطيط وهو يسبح ومسبحته تقرقر وقال بصوت مرتفع صباح الخير.

ردت عائشة وردت فاطمة

وجلس بجانب الكانون وهو يقول الدنيا برد ضمت فاطمة ابنتها.. وجاءت بها باتجاه الكانون النار فاكهة الشتاء هكذا قال النطيط.. ارتفع الدخان من النار رفع النطيط رأسه بعيداً وهو يقول أخ خ خ.. دخان الأثل يعمى لعيون.. قالت عائشة هذا دخان سدر موشى أثل.. ومدت له كاساً من الشاى.. وسكبت فى الكاس الآخر شاياً وناولته إلى فاطمة..

قالت فاطمة: إن شاى الزعتر كرهته..

قالت عائشة: إن هذا برهم شعير

أخذت الكاس وشربته وأرجعته إلى عائشة وهى تقول: يا عمى على أنا أريد أن أذهب اليوم إلى «دقى» لأرى ماذا حصل.

قال على: يا بنتى هذا بيتك وابقى معنا مثل بنتنا.. اذهبى وشوفى شن صار وارجعى.

قالت له باهى.

قالت عائشة: استنى خوذى شوية هالسويقه والتمر.. بالك تتغدى فى دقى.

صرت لها عائشة صره.

وربطت ابنتها على ظهرها.

وخرجت من الغار.

كانت الشمس قد أشرقت والجبال أضاءت صفحتها من الشرق.. الندى لم تجففه الشمس وسارت فى المسرب الرابط بين القريتين.

شاهدت عند سهل الجفارة الذى يطل عليه الجبل بعض الحيوانات لازالت تتكتل فى زرائبها.

وهى فى الطريق التقت بمبروكة زوجة الحداد سمعت بها وأرادت أن تسلم عليها هى وأسرة على النطيط عانقتها بحرارة.. وبكت معها

كثيراً.. ورجعت معها إلى دقى وهى تثرثر على طول الطريق وتحكى لها ما دار فى القرية.

قالت مبروكة إن الطفلة عائشة بنت على وصلت إلى دقى وأختها برنيه ماتت فى الطريق.

وصلت إلى الغار فتحته لا شىء فيه.. باستثناء بقايا حصيرة.. وضعت ابنتها.. بل مسكتها مبروكة وهى تقول هذى بنتى.. أنا قبلتها.

دارت فاطمة فى الغار بحثت عن صينية فوجدتها لكن الماء غير موجود.

قالت مبروكة.. سأحضرلك الماء..

ذهبت ورجعت وفى يدها جرة مملوءة بالماء ناولتها إلى فاطمة التى غسلت الصينية وفتحت الصرة التى أعطتها لها عائشة وكمشة منها كمشة من السويق.. ووضعته فى الاناء وسكبت عليه الماء وحركته ودعجته بأصابعها ووضعتها أمام مبروكة التى صارت تلتهم الزميتة وهى تقول الشى لمن يكتب.

بعد قليل دخل الكلب مراح.. كلبهم الذى كان معهم فى العسه.. فرحت به فاطمة مسكين كيف وصل إلى دقى.

حرك الكلب ذيله طويلاً.. ونام على جنبه وهو يصدر صوتاً حنوناً.. سبحان الله.. الكلاب تدل الطريق.. اعطته عبود زميته التهمة كان

جائعاً.. قالت مبروكة مسعود وصل هو الآخر لقد هرب منهم وهو الآن يرعى بغنم الفقى ضو.

قال لقد قتلوا الجميع وظنوه ميتاً وبعد أن ذهبوا وهو بين الموتى تسلل ليلاً وهرب ورجع إلى دقى.

قالت فاطمة وين عائشة نبى انشوفها.

خرجت مبروكة وأحضرت معها الطفلة عائشة تمسكها من يدها وقد تمزق قميصها.. عانقتها فاطمة وبكت معها واجلستها بجانبها وهى تسألها عما حدث.

قالت عائشة: خرجت أنا وبرنيه نتبعك كان الظلام حالكاً وانتى كنتى مسرعة وتوجهتى للشمال واتجاهنا نحو الجنوب.. وخفت أناديك يسمعوننا وانتى بعدتى عنا.. سرت أنا وبرنيه طوال الليل لا نعرف أين نمشى وعند الصباح وصلنا إلى راعى إبل.

حلب لنا الحليب وسقانا وسألنا عن وجهتنا فأجبناه أننا من البدارنة ونريد البدارنة.. وقف على مرتفع عالى وكان الجبل واضحاً وقال لنا هاذاك الجبل هو البدارنة امشوا باتجاهه..

اعطانا الماء ومشينا.. كانت برنيه تتعب وترقد كلما وجدت ظل شجرة فاجلس بجانبها وأطلب منها السير.. عند العشية بدأ الذئب يتبعنا يقف إذا وقفنا ويسير إذا سرنا.. بدأ يقترب منا.. تعبت برنيه نامت

تحت ظل شجرة رغم انني كنت خائفة من الذئب الذى صار يقترب منا.

هاجمنا بضراوة كثحنا فى وجهه التراب تراجع قليلاً ثم عاد.. صاحت برنيه لقد نهشها الذئب.. هربت أنا وعندما التفت كان الذئب يمخر فى فؤاد برنيه.. وهى تصيح وهو ينفض امعاءها خارجاً.. هربت وجريت ولا أدرى كم جريت.. كنت أجرى طوال الليل وبين عيونى منظر أنيابه المغروسة فى جنب برنيه والدم يسيل..

أجرى وأجرى.. وييبس حلقى.. وقلبى ينبض بشدة ولم أعد أحس برجلى والأحجار التى أدمتها طوال الليل وأنا أجرى.. عند انبلاج الصباح وجدت راعى غنم.. سقطت بجانبه صار يرشنى بالماء حتى أفقت فأخبرته بالقصة.. قال لى لا تخافى اعطانى الحليب وقال لى.. هل رأيتى الجبل كان واضحاً.. اذهبى إلى هناك ستجدين أهلك.. قلت له ليس لدى أهل.. أهلى قتلهم الطليان.. قال ستجدين بعضهم فى القرية.

اعطانى الماء وسرت باتجاه الجبل.. بعد العصر وردت البئر الذى يرد عليه سكان البدارنة.. ووجدت مبروكة ترد الماء فرحت بها وفرحت بى وأخذتنى معها إلى غارها حيث فرح بى عمى سالم الحداد..

قالت فاطمة: اقعدى معى ونسينى انتى بنتى.. قالت عائشة باهى.

خرجت مبروكة وأعلنت عن قدوم الفقى ضو يسلم على فاطمة وكذلك سالم الحداد.. قال الفقى ضو: الحمد لله على سلامتك يا بنيتى.. وهو يدخل من درج الغار ويكرر.. بسم الله.. بسم الله.

استقبلته فاطمة وسلمت عليه وجلس القرفصاء وهو يسأل كيف صار فيك يا بنتى؟.

قالت له هربت فى الليل حتى وصلت إلى العجيلات ولقيت عمى على النطيط هو اللى جابنى لهنا.

قال الفقى: على النطيط روّح؟

قالت: روح.

قال الفقى: الحمد لله على سلامته توا نمشوا له نبارك له بالسلامة.

قال سالم: نمشى معاك.

قام الرجلان وبقيت فاطمة والطفلة عائشة ومبروكة.. بعد قليل دخلت امباركة زوجة الفقيه وسلمت ولم تبق فى المكان لانها ترحى فى عشاء العائلة.. وأخبرت فاطمة أن مسعود موجود مع غنمهم.. انزلت طبقاً فيه شيئاً من الدقيق وناولته إلى فاطمة أخذته منها وهى تشكرها.. خرجت مبروكة وأحضرت كمية من التين اعطتها لفاطمة وصار الجيران يرسلون أو يحضرون شيئاً من الدقيق أو التين لفاطمة مساعدة لها.

استطاعت فاطمة أن تجمع قليلاً من الحطب وتضعه بجانب النار للتدفئة فى الليل.

ونظفت الغار وجهزت مكاناً لنومها ونوم عائشة ونوم ابنتها.. افرشت بقيايا حصيره.. وملأت كيساً بالتراب اتخذته وسادة.. لقد حملوا معهم كل شيء ولم يبق شيئاً بالغار..

عند المغرب أشعلت النار وتحلقت حولها هى والطفلة عائشة ووضعت ابنتها فى حجرها.. وضعت كمشة من التمر لعشائها هى وعائشة.. هنا صاح مسعود فى مدخل الغار..

فاطمة.. فاطمة..

أجابته.. مرحباً.. الحمد لله على سلامتك مسعود.. دخل مسعود وسلم بحرارة على فاطمة.. وجلس بجانب النار.. وسألته ماذا حدث.. قال لها جمعونا الرجال فى أرض واطئة وأخذوا النساء بعيداً عنا.. واستاقوا الابل والغنم لا أعلم أين ذهبوا بها كنا جميعاً مقيدين.. يحيط بنا مجموعة من العسكر المسلحين.. ودون أى كلام ونحن مقيدين انهمر علينا الرصاص سقطنا على بعضنا البعض..

بعضنا كان يئن أنيناً محزناً.. وبعضنا ساكت سقط فوقى أحد الرجال.. لا أعرف من هو فى الظلام.. بقيت تحته ظننى العسكر أننى مقتول.. وقد تقطع حبل القيد من الرصاص.. ذهبوا ليرجعوا لنا

ليدفوننا أو يردموا الأرض علينا ولما سمعت أنهم ذهبوا تحركت ثم تحركت واطليت برأسى ولم أر أحداً فى الظلام.

خرجت من بين القتلي.. ملابسى ملطخة بالدماء وتسللت من الحفرة وتوجهت نحو الجنوب أمشى قليلاً وأجلس حتى أرى ربما هناك من يتبعنى.. كما أحسست أننى بعدت وبعد عنى ضجيجهم جريت بسرعة.. الخوف يجعل الإنسان يجرى دون أن يدرى.

كانت رائحة الدم تعبق من ملابسى فجلبت لى الذئاب صاروا يتبعوننى إذا مشيت يمشوا وإذا جريت يجروا.. مسكت عوداً طويلاً أهشهم به عنى.

كنت أجرى طوال الليل.. وعند الفجر وردت بئر الحمراء كان به ناظور.. لم أجد عليه أحد.. واصلت سيرى وكنت متعباً وحلقى جف من العطش لاح لي الجوش على يمينى.. فلم أمر عليه.

عند منتصف النهار وردت بئر البدارنة فوجدت سالم الحداد يسقى حماره ويحمل الماء ففرح بى وسقانى ورجعت معه إلى القرية حيث استقبلنى الفقى ضو.. وكلفنى برعى غنمه وهى قطيع صغير بقى من غنم القرية.. ولم أشعر أن احدى رصاصاتهم ضربت فخذى ومرقت منه إلا أنها لم تكسر العظم.

وكشف مسعود عن فخذه ليرى فاطمة ضربة الرصاصة أن المآسى

تزيح الحياء..

قالت فاطمة: الحمد لله على سلامتك..

حاول أن تكمد الجرح وتربطه.. قال مسعود: أظنه شفى ولم يعد يؤلمنى كثيراً كما قمت بخياطة قميصى ففيه الكثير من الثقوب من جراء الرصاص..

قالت فاطمة: أين طاقيتك؟

قال مسعود: بقيت فى المحوس تركتها فى الحفرة مع القتلى إنها شهيدة.

قامت فاطمة وأخرجت كمشة من التين الذى جلبته معها مبروكة وأعطته لمسعود.. وأفرشت له فى الغار الثانى بقايا حصيرة لينام ولكنه قال لها أنا أنام فى الجامع.. وقام وخرج وهو يلوك يابس التين وابتلعه الظلام بعد قليل عاد يجرى وهو يصيح.. فاطمة.. فاطمة.. أجابته ما بك؟

الحمار رجع.. لقد وصل الحمار إلى الغار هارباً من آسريه..

خرجت فاطمة فرحة.. وأخذت الحمار إلى السقيفة وربطته وتأسفت أنها لا تملك شيئاً تعطيه له.. فقال مسعود غداً أحضر له القزاح.. إلا أنها قالت لا شك أنه أكل شيئاً من السبط.. والقزاح فى الطريق..

مسكين هذا الحمار إن الحيوانات وفيّة.. رجع الكلب.. ورجع الحمار..

قال مسعود: تصبحوا على خير وذهب للمسجد..

قالت فاطمة: إن الله لا يتخلى على أحد.

ومهدت الفراش لها.. ولعائشة التى ما إن داعبها الكرى حتى قامت تصيح الذئب.. الذئب..

وأيقظتها فاطمة وأعطتها الماء شربت إلا أنها استمرت كلما نامت تصيح الذئب.. الذئب.. وقالت إنها ترى اختها برنيه والذئب ينهشها.. استمرت معها العادة مع الأسف طوال حياتها.. آخر الليل قامت فاطمة للرحى لترحى صاع الشعير الذى أحضرته لها امباركة زوجة الفقى ضو..

ونساء البدو يبثن شجوهن عند رحى الرحى..

بدأت الرحى تدور.. وبدأت فاطمة فى الغناء:

كـنـا أربـعـين صبية وفـراشـنـا عـلى وسـادة
وجـانـا الـزمـان لمفرق فـرقـنـا بـلا غـير راده

***

يـا والـده ويـن غبتى تـركـتـى لـفـاهـق عليه
كـن لارفـعـتـى وجبتى وجـدّت عـلّ الـثـنيّه

***

الــدهــر كـــسّر جناحي   ومـــا فى الــلــيــالى اثيقه
اخْــلى مـن الكسوبه مراحى   ولحّـــق الــلّــم الشفيقه

***

دقِّـــى بـكـت نـــاس دقِّـى   راحـــوا عليها شتايت
والـــدهـــر فـيـهـم ينَـقـىّ   ولا مــن يــرجّـع الفايت

***

يـا بــوى غـابـوا الجـيران   الـلى كنت نحسن عليهم
الـيـوم صرت نلقى افلحسان   ومـــــن لى يجـيـهـم

***

يـا غـــار كنك بــلا ناس   ويــن غيبوا اليوم ناسك
يـا غـــار ضيقت لنفاس   كيف مـا ضياقت أنفاسك

***

عند الفجر انتهت فاطمة من رحاتها.. وقد قامت عائشة أكثر من ثلاث مرات وهى تصيح منزعجة.. ضربت فاطمة فردتى الرحى بعضهما ببعض ليسقط ما علق من الدقيق بها.. وابعدتها لتضم الرقعة على الدقيق.. وقامت لتشعل النار وتضع الصخان على الكانون.. وأحضرت صينية صغيرة وضعت فيها كمشة من السويق.. وسكبت عليها الماء الساخن ولثتها ونادت عائشة أن تقوم.. قامت عائشة وغسلت وجهها فى هذا

الأثناء دخل مسعود..

صباح الخير.. كيف أصبحتم..؟

صبحك بالخير..

جلس بجانب النار ومد يده للزميته وهو يقول البارح الليل الكل المطر تصب.. قالت فاطمة خوذ الحمار.. واستلف مرطه شعير واحرث أرضتا..

فرح مسعود بالمهمة وقال من يسلفنا الشعير..

قالت فاطمة: شوف الفقى ضو وإلا عمك على النطيط لازال يمضغ فى الزميته وخرج مسرعاً..

بعد قليل رجع ليقول لها إن الفقى ضو ليس عنده شعير.. عرفت فاطمة السبب ولم تقله لأحد فلقد أرسل إليها يطلب الزواج منها.. فاعتذرت لأن زوجته امباركة هى صديقة أمها.. واعتبرها رفضته وبالتالى تعذر بعدم وجود الشعير عنده..

قالت لمسعود اذهب لعمك النطيط أخذ الحمار ووضع عليه البردعة وسار باتجاه زعرارة.

غاب قرابة الساعتين ورجع يحمل مرطة شعير يبطحها على الحمار..

قالت له: هناك المحراث فى السقيفه ركبه على الحمار وازرع واحرث..

مر مسعود بجانب غار الفقى ضو يسوق الحمار وقد علق به المحراث..

قال له يا مسعود تمشى تحرث والشياه من بيهم ..

قال مسعود: نحرث اليوم وغدوه نلهى بالشياه..

قال الفقى ضو: لا الهى بالشياه والا اعتبر نفسك امبطل من اليوم..

قال مسعود: بالسلامة انبطل واستمر يسوق حماره ولم يعرف انقلاب الفقى ضو بهذه الصورة..

***

عند منتصف النهار جهزت فاطمة خبزة وجرة الماء وذهبت مع عائشة الصغيرة لاحقين بمسعود حيث يحرث فى الجسر فأعطوه الخبزة ليتغدى بها.. وأخبر فاطمة بما قاله الفقى ضو..

قالت له: ستعرف السبب فى المستقبل..

***

لازالت المطر تبشبش ورجعت فاطمة وعائشة إلى الغار بعد أن جمعتا كمية من الحطب المبلول ووضعتاه فى السقيفة ليجف..

عند المغرب رجع مسعود وتعشي عند فاطمة وذهب لينام فى المسجد فوجد الفقى ضو قد قفله فرجع إلى فاطمة ونام فى الغار المقابل.. ليستمر عمله فى صباح اليوم الثانى..

أما فاطمة فلقد قررت أمراً لم تخبر به أحد فرافقت عائشة وذهبتا معا إلى قرية زعراره إلى بيت على النطيط..

جلست معه على انفراد لتقول له.. يا عمى على أنا لم يبق من أهلى أحد وبقيت امرأة وحيدة.. والناس لا ترحم أريدك أن تعقد لى على مسعود قال على النطيط الله يبارك هو عنده علم.. قالت لا ولكنه سيوافق.. أرسل على النطيط سالم الحداد إلى مسعود بأن يأتى إليه..

عند العصر جاء سالم الحداد ومسعود سلم عليه على النطيط وانفرد به ووافق بل لم يكن هذا الموضوع يدور بخلده..وقامت زوجة النطيط عائشة بإعادة ظفر فاطمة.. وتزيينها وذبح على النطيط جدى اجتمع حوله الجماعة وقرأوا الفاتحة وقام مسعود مع زوجته راجعين إلى «دقى» بعد أن وعدها بشاة مهرا متى تحصل عليها.

قالت فاطمة لمسعود عليك أن تذهب للبحث عن عمل الناس عندها أغنام فاذهب واتفق مع صاحب غنم بالحول ترعى له..

عند الصباح ركب مسعود على الحمار ونزل إلى الجفارة حيث الصيعان بعضهم يبحث عن راعى لغنمه ذهب إلى الجوش حيث يوم السوق.. والتقى مع الناس وصادف صويعى راعيه ترك الغنم.. فوجده وكل منهما فرح بصاحبه..

الغنم 250 نعجة تقضى أجرة الغنم دفع شاة واحدة على كل 25 شاة..

و10 مرطات شعير نفقة فى الحول وجرد ومداس وقميص وكبوس.. وافق مسعود وأعطاه الشعير ليحمله إلى أهله.

وصل فى المساء مسعود يحمل 10 مرطات شعير وكل الأمانى لفاطمة التى تحمست معه وقالت له إذا أحضرت لى الصوف سأصنع الجرود وأبيعها.. عند الفجر ذهب مسعود على اقدامه لان صاحب الغنم عنده حمار يحمل عليه تموينه واثاثه وغطاءه وماءه والحمار مع الغنم.

ستة أشهر كاملة لم يرجع مسعود إلى القرية.. كانت فيها فاطمة تتعود الزرع وتهش عنه الاغنام وتقسم ذلك الشعير على الوجبات.

وانكسر الجسر الذى تنبت به عدة شجرات من التين بسبب السيول.. ساعدها فى إصلاحه سالم الحداد وزوجته وعائشة الصغيرة..

عندما وصل مسعود كان يحمل كمية من الخضار اشتراها من سوق الجوش ولحم نعجة ماتت من غنم الصويعى فاعطى له السقيطة.. كما اشترى كمية من العطور والحناء والجدرة لزوجته وشيشة «بارزيت» من العطر الذى كان البدو يستخدمونه ذلك الوقت..

فرحت فاطمة به وجهزت عشاء وزعته على الجيران.. أقام مسعود ثلاثة أيام مع فاطمة وفرح كثيراً عندما علم أن زوجته حامل.

فى اليوم الثالث رحل ليلحق بغنمه.. وزعت فاطمة تلك العطور على الجارات بعثت قليلاً إلى عائشة زوجة النطيط.. بعد أسبوعين عاد

مسعود يحمل 10 جزات من الصوف منحها له صاحب الغنم الذى جز غنمه.. أعطاها لفاطمة فانشغلت بصنع الصوف ونزل مسعود للجسر حيث إن الزرع نضج فحصده كانت الكمية بسيطة استغرقت منه يومين وكانت فاطمة تدق السنابل.. وتحصلت على 10 مرطات شعير أخرى.

الحمد لله.. الخير وفير.. وجمعت التبن ورجعت به إلى الغار حيث خزنته مؤونة الحمار.

بعد عام عاد مسعود إلى القرية يسوق قرابة الثلاثين شاة أجرته.

واعتذر لصاحب الغنم انه لا يستطيع أن يزيد عاماً آخر لأن زوجته وحدها وهى محتاجة إليه خاصة وأنها أنجبت ابناً له اسمته على والدها الطيف.. وصل إلى القرية وصار كل يوم يرعى بغنمه فى حصائد الزرع.. واستطاعت فاطمة أن تصنع 2 جرود أخذهما للسوق وباعهما واشترى ما يلزم البيت من لوازم التموين واشترى لفاطمة ملحفة وغطاية وبُلغة فهى منذ عام تسير حافية واشترى لها صوفاً آخر قامت بصنعه 2 جرود أخرى.. باعها وأصبح يملك مدخراً من المال وصار مسعود ينادونه فى اجتماعات القبيلة.

وصل الطليان إلى الجبل وأصبحت البدارنة تتبع مديرية الحرابة.. وعينت إيطاليين مديريين من المؤيدين لها.. ولهم كامل التصرف فى البشر.. المهم أن يكون فى صالح إيطاليا ولم يكن مسعود على دراية بما يخططه له القدر فلقد جاء البدارنة شاوش مرسلاً من المدير مهمته

يجمع الضرائب وطلب من مسعود أن يعد له الغذاء هو وشيخ القبيلة.

أعدت فاطمة قصعة من الكسكسى للشاوش وقد ذبحت ديكها الوحيد.. ووضعته على القصعة إلا أن الشاش ما إن رفع الطبق على القصعة ورأى لحم الدجاج حتى امتعض ودفعها برجله وهو يقول.. ذبح شاة خسارة فينا يا مسعود.. وقام غاضباً..

حاول مسعود أن يترجاه وكذلك شيخ القبيلة إلا أنه أصر وخرج وركب حماره وذهب..

فى اليوم الثانى جاء إلى القرية 2 من العسكريين مرسلين من المدير لحمل مسعود.. قيدوه أمام زوجته وجلدوه بالسوط عدة جلدات وربطوه فى ذيل الحصان..

أوصلوه إلى هناك وأودعوه السجن بتهمة أنه شتم حكومة إيطاليا وصاروا يجلدونه كل يوم.

ذهب على النطيط يستفسر عن مسعود الذى يعرف أنه لا علم له ولا دراية بالسياسة ولكن المدير قال له.

امشى روح.. والا انضمك ليه..

رجع النطيط حسيراً كسيراً.. وجاءت فاطمة تسأل فأجابها أنهم لم يسمحوا لى برؤيته كان فى السجن عشرات الآخرين لأسباب تافهة.. مثل أن أحدهم رآه المدير يلبس سروالاً فأحضره وجلده وأمره بخلع

السروال.. وقال له:

إذا انت تلبس السروال فماذا ألبس أنا؟

وأودعه السجن..

شخص آخر له كلب نبح على السبابيس فأودعوه السجن وقتلوا الكلب.. وعشرات القصص المؤلمة..

***

بقى مسعود ثلاثة أشهر فى السجن ثم اطلقوا سراحه ولم يستطع السير على أقامه من الضرب وكان متورم الظهر.

سمع به على النطيط فذهب إليه ليحمله على حماره ويرجع به إلى القرية.

وصل الغار لا يستطيع المشى أدخلته فاطمة إلى الغار فلم يستطع الجلوس وانبطح على بطنه وقد التصق قميصه بالجراح الدامية... كانت تدعو على الشاوش الذى تسبب فى كل هذا.. وكانت طيلة الأشهر الماضية ترعى الغنم وتعود بها عند الليل ترافقها عائشة الصغيرة..

جاء النطيط يزور مسعود وكذلك سالم الحداد وأكثر رجال القبيلة وطلبوا من فاطمة أن تصنع مرهماً من زيت الزيتون وصفار البيض المحروق وتدهن به ظهر مسعود وأرجله.

بقى على هذه الحال قرابة الشهر واستطاع أن يقوم وأن يمشى قليلاً

قليلاً حتى تمكن من اللحاق بالقطيع ويزاول مهنته الرعى.. واستطاعت فاطمة رغم ظروف الأطفال والرعى وغياب مسعود أن تصنع 2 جرود أخرى وجدها مسعود جاهزة.. فعندما شفى ركب الحمار وتوجه إلى السوق فى الجوش حيث باعها واشترى ما يلزم لأسرته ولما سأله أصحابه عن سبب الجروح الظاهرة على يديه ووجهه أجابهم بأن الحمار أسقطنى.. ان الناس تخشى أن تحكى مآسيها التى يعملها الطليان.. وأعوان الطليان.. صار مسعود يتجنب الاجتماعات وأحس أن الفقيه ضو له ضلع فى ما حدث له فصار يتجنبه.. وحذرته فاطمة منه وقالت له لقد قالت لى مبروكة أن الفقيه قال لها سنشوقها فيه.. يقصد مسعود وطلبت منه عدم الحديث فى هذا الموضوع وأن يلهى بغنمه..

مرت الأيام ونما قطيع مسعود وصار يدفع الزكاة ويقيم أفراح الجز ويستدعى الجيران وأهالى القرية لمساعدته فى الجز.

وتقدم جواشى لخطبة نجمة فوافق وأقام لها عرساً يليق بها وصادف ان كان الربيع مزهراً فأقام مسعود حفلة الجز.. فى خيمة نصبها بسهل الجفارة وحضرها عدة أشخاص ساعدوه فى الجز وتغنوا بفضل الغنم وفضل الكبش كما هى العادة..

وحضر اصهاره الجواشة مساهمين يحملون الخضار وفواكه المنطقة.. وانجبت فاطمة طفلاً آخر اسموه خليفة وكبرت العائلة.. وفى هذا الموسم اعطى مسعود نعجة لنجمة مكان عنزها التى اخذوها

سبابيس العسه..

كما ربط فى رقبة نعاج أخرى خرقة لكل من الطيف وخليفة وقالت الطفلة اليتيمة عائشة وأنا يا عمى مسعود نبى عنز..

قام إلى احدى المعزة وربط فى رقبتها قطعة قماش وقال هذه العنز لك.. لقد فرحت كثيراً انه حب التملك وانفض ذلك العرس لجز الأغنام بحيث اعطى لكل الحاضرين جزة صوف هدية.. ان مسعود يحس بالعوز الذى عاناه وبالتالى لا يبخل بما لديه..

وأحضروا أخيراً الكبش يجزونه وهو رمز قوة القطيع ولا يوقعونه على الأرض بل يجز واقفاً احتراماً له وزغردت فاطمة ونجمة وأحضروا البسيسة والتمر لقد ابتهج الجميع واركبوا عائشة الصغيرة على ظهر الكبش حتى يلد الاثاث فى معتقدهم وزغردت مبروكة بحماس..

رجعت فاطمة إلى القرية محملة بالصوف والسمن وجزء من قديد اللحم.. وكذلك سالم الحداد وزوجته وبقى مسعود مع القطيع.. ولما ان فاطمة كانت مرهقة من عمل اليوم لم تنتبه لربط الحمار فى السقيفة الذى ذهب خارج القرية.. عند الصباح أرسلت عائشة تبحث عنه فى الأماكن القريبة لم تجده ورجعت لتقول لفاطمة إنها لم تجده..

أخذت خبزة أعدتها لغذاء مسعود وذهبت إليه لتخبره أن الحمار لم تجده..

قال لها ابقى مع الغنم لابحث عنه وأرجع لك.. انطلق كالسهم وغاب إلى منتصف النهار عندما جاء إلى فاطمة لينقل لها الخبر السيىء ان الحمار أكله الضبع لقد وجد عظامه وجوفه مطروحة فى احدى الشعاب ولكن لابد له أن ينتقم من هذا الضبع..

رجع مسعود بغنمه إلى القرية وطرق على سالم الحداد يطلب منه «منداف» «فخ» يصلح لان يقبض الضبع أعطاه المنداف وأوضح له طريقة نصبه وان هذه السلسلة عليه أن يدفنها فى الأرض حتى لا يستطيع الضبع الهروب بالمنداف.. ذهب ومعه فاطمة إلى حيث الحمار وقد تقوست أضلاعه وجوفه الفارغ..

كانت الليلة مقمرة.. حفر حفرة.. ونصب المنداف وغطاه بروث الحمير لأنه أخف من جلة الابل.. ثم ذر التراب عليه حتى غطاه ومسح الأثر وانسحب هو وزوجته.. وفى الطريق كان يتوعد الضبع ويهدد وفاطمة تتحسر على الحمار وكيف انه رجع من العسه إلى البيت.

إنها المكاتيب.. وأخيراً انتبهت قائلة: بالك يحصل مندافك واحد من الكلاب.. ضحك مسعود وهو يقول كلها كلاب..

وصلا الغار.. وأشعلا فتيلة زيت كما أشعلا النار وقالت فاطمة إننا نحتاج إلى حمار نشتريه.. قال مسعود عندما أخذ الجرود للبيع اشترى حمار.

قالت فاطمة: الحمد لله نحن بخير صرنا بغنمنا وأولادنا وعوضنا الله خيرا..

الأولاد سيلتحقوا بالكُتاب.. قال مسعود عند الفقى ضو.. بلاش قراية..

قالت فاطمة: القراءة مطلوبة وعيب الفقى ضو على نفسه.. سكت مسعود ومديده ليأخذ جلف خبزه من التى وضعتها فاطمة أمامه..

عائشة نامت وكذلك الأولاد.. نام مسعود ونامت فاطمة.. واستيقظ مبكراً ليتفقد المنداف..

أخذ عصاة غليظة لأنه يخشى الضبع قيل انه يهاجم الناس ويقتلهم..

وصل مسعود عند الصباح إلى مكان المنداف فلم يجده ووجد خطاً رسمته السلسلة وآثار الضبع..

صار يتبعها كان يخشى ان لا يرى الضبع حتى يهاجمه مشى به باتجاه الجبل ثم انعرج للسهل ومسعود يتبعه..

كانت هناك شجرة سدر يقصدها.. توقع مسعود ان الضبع قد يدخل فيها.. ما إن اقترب حتى شاهد الضبع وقد مسك المنداف رجله ووحلت فى أغصان السدر.. وقف مسعود بعيداً وحمل مجموعة من الأحجار وصار يقذفه بها.

كان الضبع يفتح فمه وكأنه يتوعد ويكشر عن أنيابه ويحاول القفز

باتجاه مسعود الذى كان يهرب بعيداً وعينيه نصف مغمضتين.

استمر هذا الحال إلى منتصف النهار عندما تمكن مسعود من إصابة قاتلة بحجرة كبيرة على أنف الضبع حيث أغمى عليه ولكن مسعود خاف أن يكون متظاهراً بذلك فاقترب منه وحركه بالعصا ووجد نفسه بطيئاً.. سل سكينه ليذبحه.. وتمكن من ذلك وهو يقول: ما كلت حمير الناس تسحابها ساهله وقطع رأسه.. وحفر حفرة عميقة ودفنه فيها لأن الأسطورة الشعبية تقول: إن دماغ الضبع يجن كل من يأكله.. وأن النساء يعملنه فى السحر.

قال مسعود: لا أظن أن فاطمة تسحرنى ولكن الإنسان يدبر والحذر مطلوب.. وبقر بطن الضبع حيث وجد بقايا الحمار فيها والقى بها بعيداً.. وحمل سقيطة الضبع على ظهره.

وما إن دخل القرية حتى فرت الحمير جميعاً.. وضحك الناس من الموقف.. وصل إلى الغار وزغردت فاطمة تشفيا من الضبع وقطعوا اللحم وأرسلوا لسكان القرية قطعاً منه كما جاءت مبروكة تهنئ فأعطوها حصتها والمنداف لتسلمه لسالم.

لقد شب الأولاد الطيف وخليفة وصارا يساعدان والدهما فى رعى الغنم وفى حصد الزرع.. وأحياناً يرسل أحدهما للسوق فى الجوش.. أو الحرابه.. يبيع الجرود أو يشترى ما ينقص العائلة ولكن الناس تخشى الطليان الذى سيطر على البلاد ويجهز نفسه للدخول فى

الحرب العالمية الثانية.. سمع مسعود نهيق حمار الشاوش الذى دخل البلاد واقترب من غار مسعود وهو يصيح يا مسعود.. يا مسعود.. اظهر جاى وخرج مسعود وسلم على الشاوش الذى قال له آمرا.. دير لنا الغذاء اليوم.. رجع مسعود إلى فاطمة وقال لها إن الشاوش يريد الغذاء فقالت نعطيه سم يمزق مصارينه.. يكفينا الغذاء السابق.. إلا أن مسعود قال لها إنه ملعون سيدفع بى للسجن مرة أخرى.

أرسل خليفة ليحضر جدياً من الغنم وذبحه وقطعه واعطاه لأمه التى أعدت البازين هذه المرة.. وجاء الشاويش ومعه اثنين من رفاقه ومعهما الفقيه ضو وشيخ القبيلة الهادى الدوكالى.. وغسل الجميع أيديهم ولما رفع الطبق عن القصعة قال الشاوش شعفت يا قهدى.. يقصد مسعود الذى ذبح هذه المرة شاة لم يسمع مسعود الكلمة أو تظاهر بذلك.. وأثناء الغذاء قال الشاوش يخاطب الشيخ ويخاطب مسعود.. غداً ستجمع البدارنة 20 شاباً تطلبهم الحكومة للتجنيد الاجبارى.

وانت يا مسعود ترسل أولادك الاثنين قال مسعود اترك لى واحد منهم يساعدني..

قال الشاوش: الحكومة كلنا نمشوا للدفاع عنها.. وغسلت المجموعة أيديهم وخرجوا وجلس مسعود حزيناً بحوار فاطمة التى نقل إليها الخبر ولأول مرة ترى مسعود يبكى.

***

عند الصباح اجتمعت المجموعة 20 شاباً من البدارنة من قريتى زعرارة ودقى ووقفوا فى ساحة دقى ينتظرون الشاوش..

وكل شاب تقف بجانبه أمه واخوته ووالده.. وجاء الشاوش مزهوا ومعه اثنين من السباييس يركبون الخيول وقال احدهم مخاطباً الشباب «إن الدولة طاليا الفخيمة.. تدعوكم للدفاع عنها فقولوا تعيش إيطاليا.. وارفعوا أيديكم» فعلوا ما قال لهم.. وأمرهم بالانطلاق باتجاه نالوت سيراً على الأقدام يومين وهم يسيرون حيث وصلوا إلى نالوت.. وفى معسكر هناك ادخلوهم والبسوهم لباس الجندية وصاروا يدربونهم عن السير وعن السلاح.. ثلاثة أشهر كاملة وهم فى التدريب.. وبقيت أسرهم تبكى أولادها.. هناك فى المعسكر التقوا 400 من شباب الصيعان و20 من شباب الجوش ومن القبائل الأخرى مجموعات من الحوامد وأولاد محمود والحرابه.. والمجابره.. والغزايه.. فى مجموع أكثر من 1000 جندى.. طلبت فاطمة من مسعود أن يذهب لرؤية الأولاد فذهب إلى نالوت وهناك منعوه من الدخول يومين ينتظر وأخيراً سمحوا له برؤية ولديه.. كانا فى غاية الضعف وقد لوحت الشمس سحنتهما وكست الجراح مرافقهما.. كان التدريب صعباً.. اعطاهما مزود من السويق أرسلته لهما أمهما وهى تبلغ لهما السلام..

رجع مسعود وسمع أن العسكر توجهوا به إلى زواره ومنها اركبوه سفينة إلى طبرق وانقطعت أخبار الشباب..

وليس بالقرية أى جهاز راديو ينقل أخبار الحرب إلا ما ينقله الناس شفاهاً.. ولم يكن هناك أجهزة راديو.. قيل أن الباخرة التى تحمل الجنود الإيطاليين من زواره ضربتها طائرات الإنجليز ومات الكثير منهم.. وأن الإيطاليين خسروا معركة سيدى البرانى وأسر الإنجليز آلاف الليبيين المجندين مع الطليان ولا تأتى من الجبهة إلا الأخبار السيئة.

***

ذهب على النطيط إلى الجوش وكان ابن أخيه ضمن المجندين واستخبر عن المجموعة.. ووجدان أحد الجواشه أرسل رسالة يخبر فيها بموت مجموعة من المجندين وان البقية موجودة فى الأسر عند الإنجليز وانهم وضعوهم فى جبل المقطم بالقاهرة يحفرون الخنادق.

رجع بالخبر ولم يميز بين القتلى والجرحى والأسرى وانشغلت فاطمة عن أولادها.. أربعة سنوات كاملة والحرب فى سجال بين الإنجليز والطليان ولم ينفع الإيطاليين مساعدة الألمان لهم.. وأخيراً انكسر الإيطاليون ودخل الإنجليز طرابلس واطلقوا سراح الأسرى.

وصلت مجموعة إلى الجوش وذهب مسعود يسأل فقيل له إن أولاده فى الدفعة القادمة التى ستصل بعد شهر.

انتظرها على أحر من الجمر.. وعلم بوصولها إلى الجوش فركب

حمارته وذهب لاستقبالهم لقد اشترى حمارة بدلاً من الحمار.. لم يصل من شباب البدارنه إلا 12 شاباً والبقية قتلوا فى الحرب بما فيهم ابنه الطيف.. عانق الجميع وأكثر حرارة خليفة الذى سأله عن أخيه فلم يجب وبكى وغرق مسعود فى نشيج لم ينته.. رجعا إلى دقى واستقبلت القرية بالزغاريد الأحياء من الجنود وبالبكاء عن الموتى.

ودخل خليفة على أمه التى احتضنته وهى تبكى وجلس بجانبها باكياً كالطفل.. سألته وين الطيف؟

أجابها: ركبنا فى الباخرة 1200 جندى وقبل أن نصل طبرق ضربنا طيار الإنجليز وغرقت الباخرة وتقافز الجنود للبحر يلبسون أطواق النجاة ويركبون قوارب مطاطية وكل شخص مشغول بنفسه..

كانت الليلة مظلمة.. ركبت فى قارب معى مجموعة وصار يلحق بنا حصاناً يهز القارب بأرجله.. وخفنا من الغرق فأطلق عليه أحد الجنود النار وقتله وتخلصنا منه وكان معنا ضابط إيطالى سمين كاد أن يقلب بنا القارب.. فقتله أحد الجنود ورمى به فى البحر حيث تخلصنا منه.. عند الفجر وصلنا الشاطىء ووصلت مئات الجثث الطافية للجنود وللحيوانات بغول وخيول وبعضها أحياء.. واستقبلنا الانقاذ وأخذونا نرتعد من البرد إلى ساحة مسقوفة.. وزعوا علينا الأغطية والطعام.. بقينا يوماً كاملاً وفى اليوم الثانى غيروا لنا ملابسنا وجعلونا طوابير وتوجهوا بنا إلى طبرق.. ومنها إلى سيدى البرانى حيث خضنا المعركة

التى أسرونا فيها.. أما الطيف فلم ألتق به من الباخرة.. قال مسعود هذا كله من الكلب الشاوش.. سأنتقم منه..

الطليان هرب.. وهو قعد زى الكلب.. تجمع الأهالى فى الساحة يتلقون التعازى فى موتاهم الفقيه ضو مات ولده.. والشيخ الطيب مات ولده ومسعود مات ولده.. جميعهم قرروا الانتقام من الشاوش.. ركب مسعود على حمارته ومر على الشيخ على النطيط يعزيه فى ابن أخيه.. وطلب منه مرافقته إلى الحرابه.. ليشترى أشياء من السوق.. سار معه وهما يتحدثان عن المأساة التى وقعت فيها القرية وخسارة شبابها وما إن وصلا إلى السوق.. وشاهد مسعود الشاوش حتى قفز من على حمارته وهو يقول «جابك الديو يا قهدى اليوم نهارك الاحرف».

حاول الشاوش الالتجاء إلى أحد الحوانيت ولكن مسعود سبقه وصفعه على خده الأملس وبسق على وجهه وهو يقول «تظن الطليان يبقى لك يا خاين».. وحال الناس بينهما وجاءه النطيط وهو يقول له لو كنت ندرى انك جاى لتضرب الشاوش ما جيت معاك «يا مسعود الدق فى الجيفة حرام».. وجذبه من يده.. وسار به إلى أحد الحوانيت الذى يعد الشاى «بالباى» شربا الشاى وكان هذا الموقف هو حديث أهالى السوق لعدة أيام.

رجع مسعود وهو يحكى لفاطمة ما حدث فزغردت عليه وهى تقول «بردت لى نارى.. عطيك الصحة» ودخل خليفة على والده يبشره بأن

صالح ولد عبدالغنى رجع للقرية هو وزوجته وأولاده.. تجمع الناس حول صالح الذى ظنوه قتل فى مذبحة العسه وهو يحدثهم.. عندما شرع السبايسى فى اطلاق النار هربنا أربعة أولاد واتجهنا غرباً ولا نعرف الطريق.. مررنا بالسبخه فغرق ولد عمى ميلود.. ولم نستطع إخراجه فواصلنا سيرنا نجرى حتى اجتزنا السبخه ووجدنا راعى غنم طلب منا أن نرعى معه.

وفى العشية.. جاء صاحب الغنم فطلب منى أن نبقى معه مثل ولده.. فليس له أولاد وله أربع بنات.. فوافقت.

ووافق محمد أن يرعى مع رجل آخر ووافق الفاهم أن يذهب مع شخص ثالث.. وكنا نظن أن أهلنا جميعاً قتلوا وبقيت مع عمى رحومة بوجليده وهذا هو اسمه.. ولما كبرت زوجنى ابنته آمنة التى هى معى الآن وأنجبت ثلاثة أطفال وتوفى رحمه الله وترك لى تركته من الغنم والماعز والابل على أن نهنى على بناته وزوجته التى توفيت بعده..

وها أنا رجعت لكم والحمد لله وزوجتى التونسية أما محمود فلازال مع صاحبه أما الفاهم فلقد تطوع للجهاد فى فلسطين وجد مجموعة من الناس ذهبوا للجهاد فذهب معهم ولم يرجع.. اجتمعت القبيلة لتنظف غار سى عبدالغنى الذى دمرت واجهته القنبلة.. ونظفوه له وقام مسعود بإعداد العشاء لصالح وأسرته كواجب الضيافة.

***

أسبوع كامل استمرت القرية فيه بين حزن وفرح واستقبال إلا أن الشيخ على النطيط جاء لزيارة القرية وتجمع الناس فى الجامع وقال لهم إن اليهود احتلوا فلسطين والناس تتجمع للجهاد فى الجوش والحرابة والصيعان.. وعلينا أن نساعد الذين يريدون الجهاد فى فلسطين تطوع أربعة شباب من دقى وأربعة شباب من زعراره ومن الغريب أن ابن عم فاطمة الذى خطبها وضربوه فى داخل المعيز.. وانقطعت أخباره لقد كان أحد قاطعى الطريق فى «الذراع» وهى المجموعة التى صادفت على النطيط وأخذت منه التمر وأرجعت له حماره وجرده.. وكانت فاطمة تقول إن هذا الرجل أعرف عيونه كأننى أعرفه.. لقد كان أحمد وغيرت سحنته اللحية والتعب.. رجع أحمد وفرح به والده وطلب من والده أن يتطوع إلى فلسطين ليمحى ذنوبه التى اقترفها أثناء قطعه للطريق.. لقد فرحت فاطمة عندما سمعت بذلك وقررت أن تذهب إلى عمها وزوجته لتهنئتهما بعودته.

قال خليفة أنا لا أريد أن أذهب للحرب فلقد تعبت من الحرب وتجمعت المجموعة الأخرى فى الجوش وذهبت على الأقدام تودعهم الأهالى بالزغاريد والدفوف والبخور إلى طرابلس ومنها قيل إن سيارات شحن تحملهم إلى السلوم ومنها تستلمهم الجامعة العربية كانت المجموعة حوالى 20 شخصاً من الصيعان والجواشه والبدارنه.. وانقطعت أخبارهم..

وانشغل كل شخص فى همه زراعة أو رعى.

***

ويسمع الناس عن أحـزاب تكونت وعن مجموعات تطالب باستقلال ليبيا هناك فى العواصم.. وهناك مجموعات تطالب برجوع الطليان والناس تخوض والأخبار تتضارب وأعلن الملك ادريس استقلال برقه.. وأعلن بشير السعداوى تأسيس حزب المؤتمر الذى ينادى «بالاستقلال والوحدة.. والانضمام للجامعة العربية» والبدو لا ينشغلون بالتفاصيل وعلموا أخيراً أن الملك أعلن استقلال ليبيا.

وصادف مع هذا الحدث رجوع الفدائيين المجاهدين فى فلسطين.. ذهب على النطيط ومسعود لاستقبالهم فى الجوش كانوا يضعون لفافات على رؤوسهم ويتكلمون بلهجة شامية.. لقد استشهد منهم أحمد بن سعد الذى كان قاطع طريق رحمه الله.. واستشهد جواشى وصويعى.. ورجعت البقية تروى قصصاً للخيانة وللسلاح الفاسد.. ولسيطرة الإنجليز على الموقف..

***

حلمت فاطمة أنها ستذهب إلى الحج وروت حلمها على مسعود الذى بارك لها الرأى وعرض الموضوع على ابنه خليفة الذى هلل لهذا ودعا الله أن يساعده لأن يحجج والديه.

رأى مسعود أن يزوج عائشة أولاً.. ولا يتركها وحيدة وعرض الموضوع على على النطيط الذى سره الموضوع وأن ابن أخيه أبوبكر جاهز للزواج.. عقدوا لها وبسرعة وفى عرس طفيف وامكانيات محدودة.. تزوجت عائشة وهى تذرف الدموع على أختها برنيه التى قتلها الذئب فى الجفاره والتى لازالت تقلقها من النوم كل ليلة.

***

باع مسعود عشرة نعاج وذهب مع ابنه خليفة إلى طرابلس ليحجز فى باخرة معدة للحجيج وحددوا لهم الموعد.

عند الموعد احتفلت القرية بذهاب مسعود وفاطمة وخليفة للحج بالزغاريد والدفوف والبخور.

أوصى مسعود.. سالم الحداد بالإشراف على غنمه لحين عودته كما أوصت فاطمة مبروكة زوجة الحداد بأن ترد بالها من الغار ودبشها الذى بداخله..

ركبوا شاحنة من الجوش مع مجموعة من قاصدى الحج يزفهم السكان بالزغاريد ويطلبون منهم الأدعية ووصلوا إلى طرابلس حيث رست الباخرة فى ميناء الشعاب وتجمع الحجاج للركوب.

وهذه هى المرة الأولى التى يرى فيها مسعود البحر وكذلك ابنه خليفة أما فاطمة فلها معه ذكريات مرة.. وهى تشحن الحجيج وقضت

ليلتين فى البحر.. وفى اليوم الثالث عبرت قناة السويس فى اتجاهها إلى جدة.. وفوجئت فاطمة بزوجها مسعود وهو يحتضن سيدة عجوز ويبكى.

جاءته فاطمة وجاءه ابنه خليفة يستفسرون ومسعود يشنج والسيدة تبكى هى الأخرى.. وأخيراً قال مسعود: هذه أمى.

وكيف فارقتها ولم تخبرنا ومن أى منطقة هي؟!..

كانت العجوز تكفكف دموعها.. جلست فى زاوية من زوايا السفينة وبدأت تحكى قصتها وقصة ابنها مسعود.

***

نحن من القديرات فى بئر الغنم.. وكان زوجى يرعى الغنم فى المنطقة وخيمتنا ننصبها ونتنقل بها حيث الكلأ للحيوان.. وكان مسعود هو ابنى الكبير يساعد والده.. ووصل الطليان إلى المنطقة وجاء إيطالى للخيام يطلب شراء البيض ولما انه ليس لدينا بيض ولا نربى الدجاج.. غضب وصفع مسعود الذى قال له ما عندنا بيض..

هنا أخذ مسعود عصاه وضرب الإيطالى على رأسه وسقط مغشياً عليه.. خاف مسعود وهرب من المكان ولا نعرف وجهته وجاءنا الإيطاليون وقيدوا الرجال جميعاً وقتلوهم وأخذوا الإيطالى المضروب.. بقيت أربي الأيتام منذ ذلك الزمن ولم أسمع أى خبر عن

مسعود الذى ابتلعته الأرض.. قال مسعود هربت من الطليان من خوف أن يعاقبونى وجئت إلى بئر الحوض حيث لقيت بيوت للصيعان.. بت عندهم.. وعرضوا علىّ أن أرعى عندهم فرفضت لأننى خفت أن يلحقنى الطليان وواصلت سيرى ثلاثة أيام حتى وصلت الجوش ومنه صعدت للجبل فوصلت للبدارنه ولم أُحدث أحد بقصتى..

جاء رجل ملتحى قالت له أمه هذا أخوك مصباح أخذنى معه للحج والحمد لله.

قالت فاطمة: وهذا خليفة بن مسعود جاء بنا للحج.

كانت السفينة تمخر عباب البحر الأحمر ولاحت أضواء جدة من بعيد.. رست السفينة ونزل الحجاج ولم يفارق مسعود أمه الحاجة أم السعد.. ولا أخيه مصباح.. وتجمعت المجموعة معاً.. كان مسعود يشكو من الرصاصة التى اخترقت فخذه.. ليلة العسه.. وكأنها تسممت.. بكى كثيراً وهو يطوف ويطلب المغفرة لوالده الذى تسبب له فى القتل.. أكمل الطواف وانتقل الحجاج إلى جبل عرفة.. كان مسعود يحس بثقل جسمه والألم يزداد فى رجله وتورمت.

حاولت البعثة الطبية مساعدته إلا أنه رفض النوم فى المشفى قبل أن يتم فروضه.. وصلت المجموعة إلى منى.. كانت أمه تدعو له بالشفاء وكذلك فاطمة وخليفة ومصباح إلا أن حالته ساءت وتم نقله للطبيب الذى أمر ببقائه فى المشفى.. عند الصباح جاءت فاطمة وابنها وأم

السعد وابنها لزيارته.. فوجدوه قد توفى عليه رحمة الله..

بكت أم السعد وهى تحتضن فاطمة كما بكى خليفة وهو يحتضن عمه الذى وجده أخيراً ودفن مسعود بالبقيع حسب توصيته.. وجهزت المجموعة نفسها للعودة إلى الوطن.. طوال الرحلة وأم السعد تحكى عن مسعود وتسأل فاطمة عنه.. كان ولداً طيباً أميناً مطيعاً لوالديه شجاعاً يحبه الجميع.

قالت فاطمة لقد ترك فلّة فى حياتى لن يسدها أحد وأنا التى فقدته.. قالت أم السعد فرحه ولا دامت لما وجدته بعد سنين طويلة فقدته للأبد هكذا هى إرادة الله.

وصلت الباخرة طرابلس وتجمهر المستقبلون للحجيج وجاء أخوه مسعود لاستقبال أمهم وأخيهم.. وعرفتهم على ابن أخيهم مسعود وزوجته أخذوا عنوانهم للحاق بهم فى البدارنه ووجد خليفة بعض أقربائهم من البدارنه فى انتظارهم وأخذوهم فى شاحنة مع حجاج الجوش.. وفى الجوش كان الاحتفال باستقبال الحجاج ولما ان البدارنه ليس لها طريق للسيارات نزلوا فى الجوش وأخذوا حماراً من صهرهم زوج نجمة التى استقبلتهم بالزغاريد وأخبروها عن قصة عمها مسعود وأسرته.. وصعدوا إلى الجبل حيث استقبلهم أهالى «دقى» بكل فرح وسرور حتى أن سالم الحداد قام يعزف الزكره.. وهى لأول مرة يراه الناس يعزف وزوجته مبروكة تضرب الدف.. ووزعت

فاطمة الهدايا من السبح واللوبان والجاوى.. وبخور مكة والحلوى.. وطواقى الحج وألعاب الأطفال..

ولم تنس قميصاً جميلاً لعائشة بمناسبة زواجها الذى كان على عجل وهدية لمبروكة وسالم الحداد الذى ناولته سبحة..

وصارت فاطمة مقيمة فى دقى تخرج فى الصباح تجمع أعشاب الجبل الشيح والزعتر والقبار والزريفاء ونباتات أخرى تعرفها هى وتعالج المرضى بشعال الجبل.

وكنت إذا دخلت غارها تشم الروائح الذكية من مختلف حشائش وأعشاب الجبل.

***

تغيرت الدنيا وتبدل الحال وأصبحت ليبيا دولة مستقلة وأنشأت فى القرية مدرسة للبنين شيدها الأهالى بالمجهود الذاتى.

وأحضروا لها مدرساً من الحرابه يمتطى حماراً كل يوم ويأتى إلى المدرسة ليعود فى المساء.. ويتسابق الأطفال لإطعام حمار الأستاذ حتى أن الحمار عندما قطع رباطه ذات يوم ورجع إلى الحرابه.. تفضل خليفة بمنح حمارته للأستاذ ليعود عليها إلى الحرابه.. وقام سكان القرية بالتعاون لإنشاء متجر يبيعون فيه الشاى والسكر والدقيق وحتى القماش والسجاير.. وجمعوا المال وهو على بساطته مفيد بحيث دفع

كل شخص حسب قدرته حتى أن الحاجة فاطمة ساهمت بعشرين قرشاً وساهم ابنها خليفة بدينار وساهم أهالى القرية بالقليل والكثير.. أسندوا إدارة المتجر للفقيه ضو.. وكان يبيع للجميع بالدين على المحصول من التين أو الزيت أو الخرفان أو الصوف.. كان يقبل كل شيء ويساعد كل أحد قرر السكان ترك قمة الجبل وتكوين قرية فى السهل مبنية من الحجارة بدلاً من الغيران المحفورة فى الجبل والبعيد عن بئر الماء..

إلا أن الحاجة فاطمة لم تبرح المكان لأنها ألفت الغار ولها فيه ذكريات.. هنا تزوجت وهنا أنجبت وهنا عرفها الناس وعرفتهم.. كان لها عدة دجاجات وديك.. تبيع البيض للفقيه ضو وتقاضى به ما تحتاجه من المتجر الذى هى مساهمة فيه.

وكان خليفة قد أصبح أب لأربعة أطفال وطفلة يدرسون بمدرسة الأستاذ الحرابى ويعيشون مع جدتهم التى تشرف على تربيتهم لان والدهم وأمهم سكنوا فى القرية الجديدة قريباً من المراعى للغنم.. كانت الحاجة فاطمة فى ليل الشتاء تجلس فى غارها ويحلق حولها أحفادها وهى تروى لهم قصة ما فعله الطليان فى أهلهم وما قاسته فى حياتها من تعب وتعنت وكان الطفل الطيف بن خليفة يصغى باهتمام كان يتوعد الطليان ويتمنى أن يصبح جندياً يقاتل الطليان ويثأر لأجداده..

وتستمر فاطمة فى سرد قصتها وكثيراً ما كان المصباح ينتهى منه الزيت.. فتستمر تحكى فى الظلام وينام الصبية وهى تحكى ولا تدرى أن الأولاد لم يعودوا يسمعونها فلقد ناموا.

كانت مخزناً للتاريخ الوطنى.. وكان حفيدها الطيف يفاخر زملاءه بأنه يعرف قصصاً حكتها له جدته ويستمر يسردها للأطفال بكثير من المبالغات.. وكان يخبر زملاءه عن أمنياته فى أن يكون جنديا ليبيا يقاتل الطليان الذين قتلوا أجداده وشردوا جدته.

وقد أخذ الزمن مأخذه من الحاجة فاطمة التى ضعفت وتقدمت بها السن.. حتى أن أم السعد وأولادها عندما جاءوا لزيارتها لم تستطع أن تستقبلهم فى السهل.. بل انتظرتهم فى باب الغار فى أعلى قمة الجبل..

احتفلت بهم وذبحت لهم شاة واستدعت سكان القرية لتعرفهم على عائلة مسعود أمه وأخوته وكلهم متشوقين لسماع قصة مسعود التى لم يقلها لأحد وكانت مبروكة زوجة الحداد تساعدها فى الرحى وتحميس الشعير والغربله.

***

بقيت عائلة مسعود معهم ثلاثة أيام.. أحضروا معهم هدايا للعائلة وللجيران وودعوهم على أساس اللحاق بهم فى بئر الغنم لرد الزيارة.. إلا أن فاطمة ضعفت وأصيبت بضيق التنفس وصار خليفة وزوجته

يقضون الوقت الطويل معها وفى احدى الليالى تعبت.. وتجمعت حولها نسوة القرية وحضرت مبروكة وامباركة.. وأمينة التونسية وجلسن بجانبها.

صار وجهها يشحب ويتغير إلى الصفار.. وصوتها يضعف وهى توصى خليفة على أخته وعلى عائشة وتوصيه بتقوى الله والدوام على الزكاة.. ووعدة سيدى عبدالسلام كان ضوء المصباح يخفت لأن زيته بدأ ينقصه.. قالت مبروكة يا حاجة أذكرى الله.. شهدى..

رفعت أصبعها وتمتمت بالشهادتين وشخصت عيونها.. قامت مبروكة بتغميض عينيها وساعدتها على أن تمتد على طولها فلقد لفظت أنفاسها.. بكى خليفة بجانبها وزوجته مرضية التى كانت تبكى من الأول وقالت مبروكة رحمها الله.. وأمرت النسوة بالعمل على تغسيلها واحضار الماء وتدفئته.

وخرج خليفة من الغار وهو يشهق وقامت النسوة بعملهن ولقد أوصت فاطمة بأن يتم تغسيلها بماء زمزم الذى أحضرته من الحج معها.. وان تكفن بالكفن الذى أحضرته من مكة.. وكانت تتمنى أنها دفنت بالبقيع بجوار مسعود ثم تعطير الغار وسجى جسدها فى انتظار حمله إلى المقبرة.. وعند أذان الفجر ذهب خليفة للصلاة وأبلغ المصلين بأن والدته توفاها الله.. سارع سالم الحداد وأحمد على وصالح إلى المقبرة لحفر القبر.

وانتقل بقية الرجال إلى الغار حيث ترقد فاطمة أخرجنها النساء فى ضجة من البكاء وأخذها الرجال على أكتافهم وهم يرددون «لا إله إلا الله محمد رسول يفنى العبد ويبقى الله».. كان يتقدم المرددين الفقى ضو.

قال خليفة إنها أوصت بدفنها فى المقبرة العتيقة بجانب عمتها نجمة.. قال الفقيه ضو هل سالم الحداد عنده علم..؟ قال خليفة نعم لقد أوصيته.

وصلت إلى المقبرة وأدرجها خليفة حسب رأى الفقيه ضو يدرجها أحد محارمها وتمت تسوية القبر وشيد خليفة قبة صغيرة تزين القبر من أعلى وضع فيها فانوس زيت يشعله كل ليلة جمعه ليضىء عليها.. رجع باكياً وذبح شاة وجمع سكان القرية لقراءة القرآن على روحها.. وحضر التأليف كل أقربائها ابنتها نجمة جاءت من الجوش مع زوجها وعائشة جاءت من زعراره مع على النطيط وابنه وزوجته وبكين كثيراً إلا أن المقدر كاين..

قرئ التأليف.. ورجع كل شخص إلى مبيته ونام خليفة وزوجته فى الغار خالياً من فاطمة التى كانت تأمر وتنهى وتنبه.. وشعر خليفة بغربة قاتلة.. ففى أشهر معدودة فقد والده ووالدته وبقى وحيداً دون معين.. لقد كانت أمه ترافقه بدعواتها ونصائحها وتوجيهاتها كان يحس أنها سنده القوى.

تنهدت مرضية.. وهى تشهق.. وغطت الأولاد بغطاء نسجته فاطمة أيام شبابها واستغرق الجميع فى النوم.

ومرت الأيام ونشأ جيل جديد من الشباب نسوا الحاجة فاطمة وما قاسته من ويلات.. ونسى خليفة فى كثير من الأحيان أن يشعل مصباح الزيت ليلة الجمعة على قبر أمه.. وتناقص عدد المسنين وازداد الشباب الذين يجهلون ماضى أجدادهم وجهادهم وما قاسوه من أجل قراهم الصغيرة.. ومررت اسأل عن فاطمة فلم يجبنى أحد لقد نساها الجميع ورأيت أن اكتب تاريخ حياتها العطر بالبطولات.. حتى يفتخر أحفادها بما قدمته هذه السيدة المناضلة..

واعتدى المعتدون ذات ليلة على قبرها الذى يظنون أنه يحتوى كنزاً من الكنوز وهدموه.. وحاول خليفة ابنها أن يرممه ولكنه لم يستطع إرجاعه كما كان ولكن تاريخها بقى ناصعاً وبقى خليفة يتصدق بشاة عنها كل عام من تلك الشياه التى ساهمت فى اثرائها.. وأوقفت فى حياتها جسر التين الفوقى على طلاب القرآن فى المسجد.

وبقى الفواتير أولاد سيدى عبدالسلام الأسمر يأتون كل عام فى فترة الجز يأخذون جدياً هو وعدة جدهم.. صدقة جارية.. وهكذا عصف الزمن بكل الذكريات الطيبة.. وأصبحت قرية دقى وقرية زعراره من ذكريات التاريخ تغزوهما الرمال وينشط الناس للبناء الجديد والطراز الجديد.. إنها سُنة الحياة.

وتكونت قريتان جديدتان لا تمتان بصلة لماضى القريتين القديمتين.. ولا فى طرازهما إنه الزمن يفعل فعلته.. وبر حفيدها الطيف بأن يكون جندياً وأن يتحرك مع الثوار ليلة الفاتح من سبتمبر.. ويحاصر قاعدة «ويلس» مع زملائه.. ويشهد طرد القواعد الأمريكية والبريطانية.. ولقد سره كثيراً طرد الطليان بقايا الفاشست.. وأحس أنه ثأر لأجداده إلا أن الذى كان الطيف يتحسر عليه.. هو وفاة جدته قبل أن تسمع بطولاته مع زملائه جنود الوطن وطردهم للطليان الذين شردوا أهلها ويتموها وجعلوها تعيش اليتم والفقر والفاقة والذل.

كان الطيف يلبس لباسه العسكرى ويمر على قبر جدته ليعلمها أنه بر بقسمه لها.. ولترضى عليه وهى فى الدار الآخرة.. وعندما يجلس مع زملائه الجنود فى ثكنته فى ليالى السمر يروى لهم بطولات جدته الحاجة فاطمة.. وقصصها التاريخية.